

صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية

شمال وغرب المملكة ١٣٢٥-١٣٣٦ هـ (١٩٠٧-١٩١٧ م)



صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية
شمال وغرب المملكة ١٣٢٥-١٣٣٦هـ (١٩٠٧-١٩١٧م)





صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية
شمال وغرب المملكة ١٣٢٥-١٣٣٦هـ (١٩٠٧-١٩١٧م)

معرض تنظمه مكتبة الملك عبد العزيز العامة

الرياض - محرم ١٤٢١هـ



مكتبة الملك عبد العزيز العامة

ص ب ٨٦٨٦

الرياض ١١٦٢٢



Grand Saint Etienne



ص ب ٦٨٠٠

الرياض ١١٦٢٧



INSTITUT DU MONDE ARABE

Institut du monde arabe
1, rue des Fossés-St-Bernard
75005 Paris

صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية
شمال وغرب المملكة ١٣٢٥-١٣٢٦هـ (١٩٠٧-١٩١٧م)

صور من مجموعة المعهد الإنجيلي
الأتاري الفرنسي
في القدس

الكاتالوج :

الترجمة العربية
فايز ملص

التسقيف
منى خزندار

الترجمة
مؤسسة التراث

متابعة التحرير
فايز ملص

تعريب التصميم الغرافيكي
FM Midad@aol.com

التصميم الغرافيكي

الصور الفوتوغرافية : المعهد الإنجيلي الأتاري
الفرنسي في القدس

هانس بورغ هونزيغر و أورشولا هيلد

أرقام الصور وخواشيها : المعهد الإنجيلي
الأتاري الفرنسي في القدس

الصور التي التقطها "جوسين" مسابقة بحرف (ج)

النسخ الحديثة من الصور من إعداد : غيوم
جينيست، "لأشامبر نوار" في باريس،

التصحيحات الفنية للصور : ناديا أوارغا من
فريق "لأشامبر نوار"،

صورة الغلاف : جدة ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)، منزل
فخم قرب قصر الحاكم

صورة ص ٢ : [٣٣١] ١٢٠٩ سم
جدة ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)، منظر للمدينة من جهة
الشرق

الطباعة : مريتا لخدمات الطباعة
الرياض - تلفون : ٤٧٦١٥٥١

شكراً

للمكتب الثقافي في سفارة فرنسا في الملكة العربية السعودية
والمكتب الثقافي في سفارة فرنسا في المملكة الأردنية الهاشمية.

كلارك حظي المعرض بدعم من :



البنك السعودي الفرنسي
Al Bank Al Saudi Al Fransi

THOMSON-CSF
طومسون سي. إس. إف

ALCATEL



المحتويات

مقدمات	٦
الرهبان الدومينيكان في شبه الجزيرة العربية ١٣٢٥-١٣٣٦هـ (١٩٠٧-١٩١٧م) بقلم : جال ميشيل دو تارغون	١١
جوسين في شبه الجزيرة العربية بقلم : هنري ثورانس	٢٦
بعثة التوبة إلى بلاد العرب - وجهة نظر عربية بقلم : د. عبد الرحمن الطيب الانصاري	٣٥

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

تعد الوثائق الرسمية وغير الرسمية مادة علمية أساسية مهمة في كتابة التاريخ ، وتهتم الأمم كثيراً بجمع وثائقها وحفظها لتوفير مادة علمية لأبنائها الراغبين في دراسة تاريخ وطنهم ، كما تعد الصور الفوتوغرافية القديمة عن الدولة بمثابة الذاكرة الوطنية ، وشاهد عيان حقيقياً لما كانت عليه بعداً عن تأويلات وتفسيرات عاطفية ...

ومجموعة الصور التي التقطها عالمي الآثار الفرنسيين : جوسين ، وسوفيانيك ، المنشورة في هذا الكتاب، تعد مصدراً تاريخياً مهماً عن المنطقتين : الشمالية والغربية للمملكة العربية السعودية ، اللتين ربما لم يسبقهما أحد في الإيغال في رصد موقع هاتين المنطقتين ومآثرهما التاريخية ، فضلاً عن ريادتهما في رسم خارطة للمدينة القديمة التي يسكنها أهل " العلا " ، وكما يذكر أستاذ الآثار السعودي الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري : " .. إذا كان " هاليغي " و " موللجوسين " و " جلاز " ، " فسمان " ثم " ركانز " الأوائل في دراسة نقوش جنوب الجزيرة العربية : فإن جوسين وسافيانيك يعتبران الراندين الحقيقيين لدراسة نقوش شمال الجزيرة العربية ويعتبر منهجهما في دراستهما مثلاً يحتذى به حتى الوقت الحاضر " .

من هنا كان حرص مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض بدعم ورعاية صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ، ولي العهد ، نائب رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس الحرس الوطني ورئيس الأعلى لمجلس إدارة مكتبة الملك عبد العزيز العامة - حفظه الله - على عرض هذه الوثائق والصور الفوتوغرافية النادرة : لخصوصية هذه الصور ، وارتباطها الوثيق بمواقع الآثار والمدن في المملكة العربية السعودية خاصة والجزيرة العربية على وجه العموم .

والرائد لمسيرة مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، يجدها تعمل جاهدة على أن تكون مركزاً للحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية وإن شئنا أن نقول : ترويجية من خلال توفير ما هو مناسب من مصادر معلوماتية بقصد تنمية أفكار المستفيدين من خدماتها والإسهام في رفع مستواهم العلمي والمهني واستغلال أوقات فراغهم الاستغلال الأمثل في مجالات وأنشطة إيجابية كما تحرص في الوقت نفسه على توفير الخدمات كافة لاستقطاب جميع فئات المجتمع ؛ وفي هذا الخصوص استطاعت مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض في خلال مدة قصيرة من عمرها المديد بإذن الله تعالى أن تحتل موقعاً متميزاً بين مكتبات ومراكز المعلومات المختلفة في المملكة ، وتنبؤاً مكانتها كصرح معرفي ثقافي وتربوي ، بإقامة الندوات المحلية والدولية وتنظيم المعارض ونشر الكتب العلمية والثقافية جنباً إلى جنب مع أداء الدور الثقافي المنوط بها ..

ويأتي إقامة المكتبة لمعرض «صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية .. شمال غرب المملكة ١٣٣٥-١٣٣٦هـ (١٩١٤-١٩٠٧م)» ترجمة صادقة لمدى اهتمام المكتبة بدعم الوثائق والدراسات التي تخدم تاريخ المملكة وتراثها الوطني جنباً إلى جنب مع جهودها المبذولة في خدمة تاريخ الملك عبد العزيز آل سعود - طيب الله ثراه - الذي تتشرف المكتبة بحمل اسمه وتسهم في تحقيق تاريخه وتوثيقه، وتشارك به مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ضمن قائمة مشاركتها في احتفالات « الرياض ، عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠ » .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فيصل بن عبد الرحمن بن معمر

المشرف العام على مكتبة الملك عبد العزيز العامة

منذ تأسيسه عام ١٨٩٠م، كانت المهمة الأولى للمعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس تفسير (أو إعادة تفسير) وتاريخ نصوص الانجيل عبر تحليلها اللغوي والأدبي من جهة أولى، ثم على ضوء الحفريات الأثرية من جهة وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) من جهة ثانية.

وقد أتت مبادرة هذا المعهد الدومينيكاني هذه في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي المضطربة، لتتغير بما مثلته من تقدم معرفي خلّاق، جواً من التحفظ والريبة، بل والعداء أحياناً، في أوساط الكنيسة الكاثوليكية حول نشاط المعهد المذكور، لدرجة أن سلطات الفاتيكان تناولته بالهجوم أكثر من مرة.

لقد كان العاملون في "المعهد" رواداً وطلّعيين حقيقيين. إضافة إلى ذلك، فإننا مدينون لهم بإمكان تحقق معرض «صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية: شمال وغرب المملكة ١٢٣٥-١٣٣٦هـ (١٩٠٧-١٩١٧م)» الذي تقدمه اليوم في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض. والواقع أن أنطونان جوسين ورافائيل سافينيّك المشهود لهما ببعد النظر واتساع المعرفة لم يترددا منذ تسعينات القرن الماضي الميلادي في استخدام أحدث التقنيات، وبخاصة التصوير الفوتوغرافي، في بحثيهما.

إن هذه الصور الفوتوغرافية المستخلصة من خزّانة الصور الأصلية النادرة العائدة إلى "المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس" تمثل شهادة فريدة من نوعها عن تلك الحقبة من حياة شبه الجزيرة العربية. ولحسن الحظ، فإن هذه الصور التي سجلها جوسين وسافينيّك على ألواح زجاجية حافظت على آثار ومعالم مدن لم تعد موجودة اليوم. وهكذا سجّلا لقطات مفاجئة وأحياناً شاعرية لعناصر وملامح ومناخات من عصر أفل.

ويتعين علينا هنا أن نحبي جان ميشيل دوتاراغون الذي يعود الفضل لأبحاثه الدقيقة في تحقيق هذا المعرض وهذا الكاتالوج. فهو كسابقه في القرن الماضي يوزع وقته بين التدريس (تحليل النصوص القديمة وتعليم اللغات السامية) والدراسة الميدانية حيث يدير تحت إشراف جان باتيست هومبير حفريات أثرية معقدة وعسيرة في غزة.

بعد حوالي مائة عام من مبادرات جوسين وسافينيّان، يتابع هذان الباحثان العمل كحلقة في سلسلة طويلة من البحث المعرفي والعلمي. وقد نجحاً أيّما نجاح في الجمع بين الروح المهنية والنزاهة.

كميل كلبانا

رئيس معهد العالم العربي

جاءت فكرة إنشاء «مؤسسة التراث»، والتي لا تستهدف الربح كهدف أساسي، لتقوم بدور يسهم في إعادة صياغة المفهوم الوطني للتراث وتأكيد أهميته ليس كبقايا ذكريات وإنما كعنصر متجدد يستمد جذوره من الماضي العريق ليسهم في انطلاقة وطنية حضارية واثقة إلى مستقبل أكثر إشراقاً. ويمتد نشاط «التراث» ليشمل العديد من المجالات ذات العلاقة بالحفاظ على تراث المملكة العربية السعودية خاصة، والتراث العربي والإسلامي بشكل عام، وستقوم المؤسسة بأداء تلك الأعمال إما لصالحها مباشرة وإما لصالح جهات متخصصة حكومية أو خاصة، ويشمل برنامج «التراث» جوانب متعددة منها التوثيق التاريخي وضعه بمساندة التقنيات الحديثة في أطر تحفظ للأجيال القادمة، والحفاظ على التراث العمراني، والقيام بالدراسات والخدمات التراثية المتخصصة، بالإضافة إلى الإصدارات التراثية. كما تساهم «التراث» في تطوير بعض الأنشطة الترويجية والإعلامية ذات الأبعاد الثقافية والعلمية والتراثية.

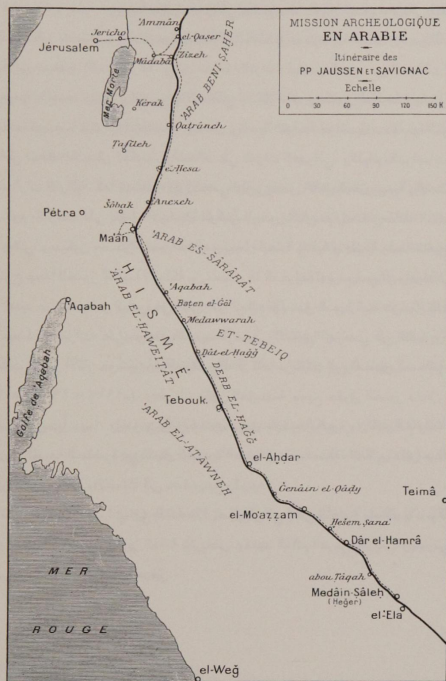
تقوم «التراث» على إنشاء الأرشيف الوطني للصور التاريخية لصالح مكتبة الملك فهد الوطنية. ويمثل إنشاء الأرشيف مهمة ذات بعد وطني، وسيكون مصدراً متميزاً للتاريخ يحمل أبعاداً ثقافية وتعليمية رائعة للتعريف بماضي هذا الوطن، ويشمل أرشيف الصور المقترح جمعاً للصور القديمة للمملكة من مصادرها المعروفة لدى مؤسسات وأفراد في أماكن مختلفة من العالم، كما سيشمل التفتيش عن العديد من المصادر النادرة في أجزاء من العالم لم يسبق البحث فيها عن مثل تلك الصور.

حصلت «التراث» على موافقة «المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس» على أن يضم الأرشيف جميع الصور الخاصة برحلات عالمي الآثار جوسين وسافينيانك والذان قاما بزيارات إلى المناطق الشمالية والساحل الغربي للمملكة في الفترة من ١٣٢٤-١٣٣٥هـ (١٩٠٧ - ١٩١٧م)، وعلى أن تكون للمؤسسة جميع حقوق الصور داخل المملكة العربية السعودية. وتمثل تلك الرحلات مصدراً تاريخياً مهماً، وأشرت عن رصد وتسجيل مجموعة كبيرة من المواقع والمآثر التاريخية والأثرية وكذلك رصد عدد كبير من النقوش القديمة المنتشرة في شمال الجزيرة العربية وخاصة منطقة العلا ومدائن صالح وتيما، ودومة الجندل. كما أنها قامت بتصوير متميز لتلك المناطق بالإضافة إلى جدة وينبع والوجه.

تأتي مساهمة «التراث» في إقامة هذا المعرض في إطار التعاون مع الجهات والمؤسسات المحلية والعالمية المتخصصة، ومن أهمها مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، ومعهد العالم العربي بباريس. ويسرني هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعم في المعرض ودعم إقامته والله الموفق.

رئيس مؤسسة التراث

سلطان بن سلمان بن عبد العزيز



العملة الأثرية إلى شبه الجزيرة العربية، مسار جوسين وسافينيان



حوالي العام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) جوسين في مهمة مع سيدات وضباط
بريطانيين، بجراصة جنود من "جيش الهند".

الرهبان الدومينيكان في شبه الجزيرة العربية ١٢٢٥-١٣٢٦هـ (١٩٠٧-١٩١٧م)

خلال عام ١٤١٥هـ (شهر يناير/كانون الثاني وأبريل/نيسان ١٩٩٥م)، شهد معهد العالم العربي أول معرض صور فوتوغرافية قديمة أنتجها دير "سانت إتيان" وأعدما للعرض السيد بيار دوفان. وقد تعدد المنظّمون أن تغطي الصور المعروضة حقولاً مختلفة بحيث تعطي المشاهد فكرة عن التنوع الثري الذي يميز مجموعة الدير المذكورة (١). وكان بين المعروضات بعض الصور الملثقة في المملكة العربية السعودية تمثل عينة من صور معرض هذا العام. وتبدو الصلة بين المعرضين جلية حين نعلم أن الأول هو الذي لفت انتباه "مؤسسة التراث" في الرياض، ممثلة بشخص رئيسها صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز، الذي أبدى رغبة المؤسسة بتعميق معرفة الجمهور بما تضمه المجموعة من صور للمملكة العربية

السعودية. وكان معهد العالم العربي الأداة الفعالة في الكشف عن مثل هذه الكنوز في المملكة العربية السعودية كما في سواها من البلدان (٢) عبر هذين المعرضين والكتالوجين المنشورين بمناسبةهما ... إننا مدينون بالامتنان لمؤسسة التراث التي نسقت مواد هذا المعرض الفوتوغرافي بما يتلاءم وأهدافها.

في القاهرة، أعاد "المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي بالقدس عام ١٤١٨هـ (١٩٩٧م) طباعة المجلدات الخمسة من كتاب "البعثة الآثارية إلى شبه الجزيرة العربية" الذي كان الأبروان جوسين وسافينيكاك نشره بين ١٣٢٧م و١٣٤١م (١٩٠٩م و١٩٢٢م) مما يدل على أهمية هذا الكتاب الكبير والصدى الذي لا تزال لقاه أعمال هذه البعثة بعد تسعين سنة من انتهاء عملها (٣).

**المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس
في عهد جوسين وسافينيكاك**

في عام ١٣٠٨هـ (شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٠م)، ألقى الراهب لاغرانج (٤) في مؤسس المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي، في مقره بدير سانت إتيان للرهبان الدومينيكان في القدس أول دروس المعهد. وفي تموز/يوليو من العام ذاته، وصل إلى المعهد رجل الدين المسيحي الشاب أنطونان جوسين الذي لم يكن عمره يتجاوز التسعة عشر عاماً ولد عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) وترفي عام ١٣٢٨هـ (١٩١٢م) وكان يريد متابعة دراسته الكهنوتية التي بدأها قبل عام. وفي سنة ١٣١٠هـ (شهر آذار/مارس ١٨٩٣م)، وصل إغناطيوس سافينيكاك ١٢٩١-١٣٧١م (١٨٧٤-١٩٥١م) إلى

القدس قادماً من فرنسا، وكان عمره ثمانية عشر عاماً. ينتمي هذان الطالبان إذاً إلى الجيل الأول من الباحثين، جيل الرواد. ويضلل شباب هذين المستشرقين المبتدئين، وما يتمتعان به من حيوية الذهن وقوة الذاكرة والظما إلى المعرفة والبحث في مختلف المجالات المبدائية والنظرية. استطاع جوسين وسافينيكاك استيعاب روح الشرق العربي المسلم وتغذية بحوثهما من نسج تراثه.

لقد عمل هذان الرائدان في إعداد المجموعة القديمة من الصور الفوتوغرافية وانطلقا في البحوث التاريخية والأثرية والدينية على أسس "علمية" لم تكن تألفها الكتيبة الكاثوليكية. ولئن كرس جوسين وسافينيكاك سنوات نشاطهما الأولى ١٣٠٨-١٣١٥هـ (١٨٩٠-١٨٩٧م) للبحث اللاهوتي، فإن كتيبتهما الاستشراقي كان يتم بموازاة هذا البحث، خاصة عبر التمكن من اللغات بحيث أصبحا لاحقاً بنوليان تدريس العربية والآرامية والسريانية والنبطية (٥). وقد استفاد الرجلان من البعثات التي كان المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي ينظمها ضمن إطار نشاطه الأكاديمي في التجول بصورة منتظمة في المنطقة: فلسطين، شرقي الأردن، سورية ولبنان. وكانت بعض هذه الجولات تتم تحت إشراف مؤسس المعهد، الراهب لاغرانج، لكن معظمها كان ينظم بإشراف الراهب بول ماري سيجورنييه. وبوسعنا هنا الإشارة على سبيل المثال إلى النص الذي نشر عن رحلة عادية شارك فيها جوسين وسافينيكاك باعتبارهما طالبين في المعهد: إن تنوع الأماكن والمواقع الأثرية التي زارهاا كاف لاستئارة أحلام أي باحث شاب في أيامنا. فرحلة كهذه ستكون اليوم مغامرة شاقة وعسيرة، نظراً للحدود السياسية القائمة راهناً بين البلدان المذكورة. أضف إلى ذلك أن رحلة جوسين وسافينيكاك تمخضت عن التقاط صور نادرة أغنت خزانة الصور في المعهد (٦):

في ١٣١٤هـ (يوم العشرين من نيسان/أبريل ١٨٩٧م)، انطلقت قافلة مسار الأنجيلي المكونة من ١٢ شخصاً في رحلة أكاديمية. وبعد زيارة إيميلوس نيكوبوليس "والد" ورأس العين وقلاسو وعتقون والمستعمرة اليهودية المستحدثة في "الضصيرة"، بلغنا ضفاف البحر الكبير "على بعد ساعة من القيصرة" القديمة. ومن هناك، تابعنا سيرنا بحاذرة الساحل إلى صيدا "وصور" بعد انعطاف سريع لزيارة قبر "حيرام". في صيدا، بدأنا ننسلق سفوح جبل لبنان لنصل إلى "دير القنر" ثم عبرنا أحد الممرات على "جبل الكنيسة" وهبطنا إلى "رحلة" حيث الضفاف الخضراء. وبعد زيارة آثار

في عام ١٣٠٨هـ (شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٠م)، ألقى الراهب لاغرانج (٤) في مؤسس المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي، في مقره بدير سانت إتيان للرهبان الدومينيكان في القدس أول دروس المعهد. وفي تموز/يوليو من العام ذاته، وصل إلى المعهد رجل الدين المسيحي الشاب أنطونان جوسين الذي لم يكن عمره يتجاوز التسعة عشر عاماً ولد عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) وترفي عام ١٣٢٨هـ (١٩١٢م) وكان يريد متابعة دراسته الكهنوتية التي بدأها قبل عام. وفي سنة ١٣١٠هـ (شهر آذار/مارس ١٨٩٣م)، وصل إغناطيوس سافينيكاك ١٢٩١-١٣٧١م (١٨٧٤-١٩٥١م) إلى

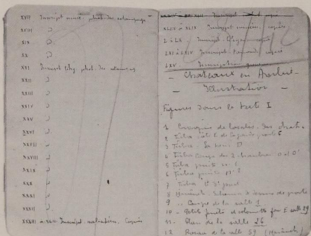
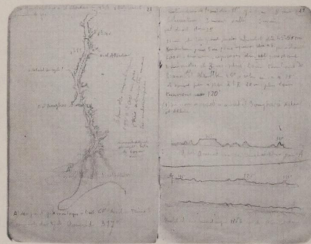
يُعلِكُ الرائحة، عبرنا إلى الشق الشرقي من الجبل لنبلغ "سراغيا" و"الريذاي" متابعين ضفاف وادي بردى الجميلة، وصولاً إلى العاصمة السورية القديمة دمشق. تواصلت تلك الرحلة الفاتنة عبر سهول "حوران" التي لم تكن معروفة كما هي اليوم، وأخذ طابعها العلمي يصبح أكثر تحقّقاً...

وبسرعة، أصبح جوسمين وسافينيكا يتوليان قيادة رحلات "قافلة مسار الانجيل": في العام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) إلى سورية الجنوبية وفي العام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) شكل المدرسان الشبان قافلة مبتكرة حملت الطلاب إلى "البترا" مروراً بصحراء النقب، وفي المرة الأولى التي اتبعنا فيها هذا المسار الذي فرضته النزاعات المحتدمة آنذاك بين قبائل البدو في شرقي الأردن. كان سافينيكا يقود القافلة، بينما كان جوسمين يسبقها مستطلعاً مخاطر الطريق ومجرباً مفاوضات حرجة مع رؤساء القبائل ليضمن للقافلة حق المرور أو ليستاجر الجمال... وما إلى ذلك (٧). وكان الرهبان الدومينيكان يذهبون أحياناً في رحلات لا يصطحبون فيها تلاميذهم، وذلك إما لأجل بحوثهم الشخصية أو بتكليف من (معهد فرنسا).

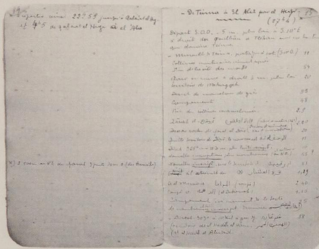
في الحالة الأولى، نرى جوسمين يذهب إلى "مادبا" في العامين ١٣٢٤هـ و١٣٢٥هـ (١٩٠٦ و ١٩٠٧م) ليعيد دراسته المنشورة تحت عنوان "عادات العرب في بلاد مواب" (٨)، أو يتردد على "نابلس" اعتباراً من العام ١٣٢٤هـ (١٩٢٣م) ليكتب عن "التقاليد الفلسطينية - نابلس ومناطقها" (٩). أما الحالة الثانية فتتمثل في طلبات وردت من باريس، ونذكر منها رحلة نسخ النقوش التركمانية في البترا، التي قام بها الراهب لاغرانج بصحبة بعض الرهبان في ١٣٢٤هـ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦م)، والبعثة إلى النقب عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) والرحلات إلى السعودية التي قام بها جوسمين وسافينيكا لوجدهما بين ١٣٢٥ و١٣٣٠هـ (١٩٠٧ و ١٩١٢م) والتي تكللت بتأليف كتاب من خمس مجلدات هو "البعثة إلى شبه الجزيرة العربية". هذا بالإضافة إلى بعثة التلقيح عن النقوش في تدمر خلال ١٣٢٢هـ (شهرى/أب/أغسطس و تموز/يوليو ١٩١٤م).



جوسمين في ضيافة خيمة بدوية
الصورة من سافينيكا



دفتر سفر سافينيكا في بعثة عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م)
الصورة من فيليب ميار



دفتر سفر سافينياف بعثة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م)
تصوير جوسين مابار



في العلا سافينياف يستعد
للتصوير من أعلى السلم
تصوير جوسين

مدائن صالح: سافينياف
يستشع نقشا قديما
تصوير جوسين

بفضل الدعم الذي تقدمه "مؤسسة التراث" (١٢) وتحفظ خزانة الصور بكافة الات التصوير القديمة وبعدادها وحاملها الثلاثية القوائم وأدراج اللوحات الزجاجية وبالقطة المكتملة والمحافظ الجليدية الأصلية (١٣) بالإضافة إلى منجم من المعلومات العلية: فذات ملاحظات التصوير السوداء التي كانت تدون فيها يوماً بيوم ملابس كل لقطة وكل رحلة. وكانت هذه الملاحظات تكتب بسرعة بالقلم الرصاص عند الوصول إلى محطات الاستراحة أو أحياناً على ظهر الجبال أثناء الرحلة. وتتضمن هذه الملاحظات أيضاً إشارات إلى النسخ الأصلية من النقوش والكتابات القديمة ورسوماً سريعة للمواقع أو خرائط للمسارات ولوائح باللفظ المصورة تبعاً لمقاييس اللوح الزجاجي الذي طبع عليه كل صورة (١٤). بالإضافة إلى سجلات ببعض تواريخ اللقطات. إن نقطة الضعف الأساسية التي تعاني منها خزانة الصور في الدير هي بالذات غياب تاريخ اللقطات. غير أن من الممكن استرجاع هذا النقص جزئياً عبر مراجعة اعداد مجلة المعهد ومقارنة محتواها بتواريخ الملاحظات وبالعناصر التفصيلية المكونة لكل صورة

بعثة التنقيب عن الآثار في المملكة العربية السعودية،

١٣٢٥-١٣٢٨هـ (١٩٠٧-١٩١٠م):

لنقط جوسين وسافينياف صور شمالي الحجاز خلال البعثات الثلاثة التي كلّفها بها لدراسة النقوش والكتابات القديمة أو لدراسة الآثار تحت إشراف "الجمعية الفرنسية

خزانة الصور الفوتوغرافية

تضم الصور القديمة من مجموعة "معهد الإنجيلي الأثاري الفرنسي" حوالي عشرين ألف صورة، خمسة عشر ألفاً منها صور سالبية (نيجاتيف) على شرائح زجاجية وخمسة آلاف موجبة (بوزيتيف) للعرض (١٥). ويعود تاريخ الصور الأولى إلى العام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م). وتعكس المجموعة أنشطة الرهبان الدومينيكان، وخصوصاً مشاريع النشر العلمي التي كانوا ينفذونها ويستعملون صورههم الفوتوغرافية في شرح مضمونها. وتتناول مواضيع اهتمامهم ببحوث الجغرافية التاريخية واستنساخ وتحليل النقوش القديمة والآثار، وهي أنشطة كان "المعهد" يقوم بها، إما بمبادرته الخاصة أو يطلب من "أكاديمية علوم اللغة والآداب". ويوجد قسم كبير من وثائق المعهد في الدراسات التي أعدها الرهبان وفي المجلة الدورية التي كان المعهد يصدرها تحت اسم "مجلة دراسات التاجيل" (منشورات "غاليلدا" - باريس) (١٦). أما في القدس، فتمة مجموعات صور موجبة يمكن الاطلاع عليها اليوم بسهولة. لكن هذه المجموعات بعيدة عن الاكتمال، فهي لا تمثل سوى عشرة آلاف صورة سالبية اعتبرها المعهد آنذاك جديرة بالاهتمام، وذلك بحسب شواغل رجال الدين المسيحيين المعنيين. أما اليوم، فقد تبدل مجال الاهتمام وأصبح ما كان يبدو عراضاً أو عديم الأهمية قبل تسعين عاماً محور الاهتمام الأول. إن خزانة الصور الفوتوغرافية هذه ليست سهلة المراجعة، ولا يزال معظم صورها مجهولاً من الباحثين. لذلك يجري حالياً تنفيذ برنامج ترقيم للصور

الجزيرة، مثل الثمودية والحبيانية والمعينية ... ثم "الخريبة" الواقعة إلى جانب "مدائن صالح". وتحتوي هذه الواحة أيضاً على آثار نبطية لكن حضور ثقافات جنوب شبه الجزيرة أكثر تجلياً فيها، مما حدا بكل من جوسين وسافينيكا إلى التركيز عليها، وخاصة وأن تماثيل رانعين قد وجدت أيضاً في مآلاتها بيد التخريب.

وعلى بعد اثني عشر كيلومتراً إلى الجنوب من "مدائن صالح"، توجد "العلا"، وهي قرية صغيرة في وسط واحة نخيل ويساتين عثر فيها جوسين وسافينيكا على آثار قديمة اعتبرها فافقة الأهمية، وخاصة منها النقوش إلا أن السلطات المحلية لم تسمح لهما بالبقاء فيها، لذلك اعتبرها علمها غير منجز. وهما لم يبلغا هذه القرية إلا في رحلتها الثالثة عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م)، لكنهما لم يتمكنا من البقاء فيها سوى ثلاثة أيام شبه مختبئين. لقد أذهلتها "العلا" وتمنيا العودة إليها. غير أن السعاسي الدبلوماسي الفرنسي لدى الباب العالي لم تفلح في الحصول على الإذن بهذه العودة، ومعلوم أن "العلا" هي مدينة "يدين" القديمة التي يذكر الانجيل أنها تقع في شمال شبه الجزيرة العربية. وكانت يدين بين القرنين الرابع والاول (ق. م) عاصمة لمملكة صغيرة يتكلم أهلها اللغة الحبيانية. ويقيم فيها تجار معينين مستعرة تدل عليها كتابات باللغة المعينية.

على ما يبدو، كانت المناسبة المباشرة للبعثة تقدم العمل في بناء الخط الحديدي الحجازي: في العام ١٣٢٠هـ (١٩٠٧م)، وصل القطار إلى مسافة قريبة من "مدائن صالح" (١٠). وأدرك الرهبان الدومينيكان الأهمية العملية لواسطة النقل الجديدة هذه، خاصة وأن تطور موازين القوى بين الأتراك والقبائل البدوية، حسبما يقول مورييس سارتر (١٠)، كان قد سهّل تهنة المنطقة نسبياً. لذلك اعتبر الدومينيكان أن حضور القوات التركية المشاركة في تمديد الخط الحديدي إلى المدينة المنورة يشكل حماية هامة لهم بعد هجم اعتيالي شارل هوبير. وهكذا تزود جوسين وسافينيكا بإذن خطي من السلطات العثمانية التي كانت المنطقة لا تزال رسمياً تحت حكمها. لكنهما كانا في الواقع يتعرضان لتعسف الزعماء المحليين بمجرد ابتعادهما عن مسار ورشات

للتقني عن الآثار" أو "معهد فرسا". وذلك وفقاً للمخطط ذاته الذي استمد به كافة البعثات العلمية الفرنسية المرسلة إلى الشرق الأدنى (١١). وكانت باريس تستخدم إدارياً عبارة "مهام" في تسمية هذه البعثات التي كانت نتائج بحثها تنشر بسرعة بفضل المساعدة الناجمة التي تلقاها من باريس. وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للبعثات الثلاثة المرسلة إلى الحجاز (١٢).

كان "المعهد الأنجلي الأثاري الفرنسي في القدس" قد توصل إلى معرفة كافية بالحضارة النبطية بفضل رحلات باحثيه المتكررة إلى "البتراء". إلا أن الرهبان الدومينيكان كانوا يجهلون تاريخ الأقاليم الجنوبية من المملكة النبطية، لذلك كانوا تواقين، هم وتلاميذهم، إلى متابعة البحوث في تلك المناطق التي لم يسبقهم إليها سوى عدد ضئيل من الباحثين مثل شارل دالوتي عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) والفرنسي شارل هوبير (١٣) الذي زار "مدائن صالح" عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م)، وكم كان جوسين وسافينيكا سعيدين حين وصلا إلى المنطقة ذاتها عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م). كان مشروع الرهبان الدومينيكان اكتشاف شمال وغربي الحجاز وسير أعماقه عبر بحوث متعددة الاختصاصات تشمل، حسبما تؤكد مقدمة كتاب "البعثة ١" دراسة المسار نفسه ثم النقوش والكتابات القديمة والآثار وأخيراً علم الأجناس (الأنثولوجيا).

جوسين وسافينيكا كانا يدركان نقطة التفوق التقني التي تميز رحلتها عن رحلات الباحثين السابقين: إنها، بلا جدال، الصور الفوتوغرافية. وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن الحصاد الفوتوغرافي الوافر الذي حققته "البعثة" إلى شبه الجزيرة العربية كان مقصوداً ومتعمداً. فالباحثان غادرا القدس مزودين بصناديق تصوير متنوعة، كما يظهر من تعدد مقاييس الصور الملتقطة (١٤)، وبكل المعدات اللازمة بما فيها الصناديق الثقيلة المحتوية على الألواح الزجاجية المعدة لاستقبال الصور السالبة. وقد ركز هذان الرهبان بحثهما على ثلاث واحات متجاورة: "مدائن صالح" التي هي مدينة "الحجر" القديمة. وهي تطل على طابعها جنوب المملكة النبطية. وتوجد فيها شواهد القبور المنحوتة في الصخور، كما في "البتراء"، حاملة كتابات باللغات ذاتها: النبطية أولاً، ثم اليونانية والعبرية والعربية والآرامية وأشكال كتابات أخرى عرّفها جنوب شبه

الاعتبار لهذا العائق. وهنا ضرب سيجوريني مع وزارة الخارجية على وتر المشاعر القومية مستغلاً التنافس بين فرنسا والنمسا. وكان قد سبق له أن أرسل في عام ١٢٢٥هـ (يوم ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٠٨م) خطاباً إلى الخارجية يطلب فيه استخدام الحقبة الدبلوماسية في إرسال ١٢ بندقة أو مسدس لتهدى إلى بعض رؤساء البدو (٢١). وحين وصلت نسخة من الخطاب إلى القنصل الفرنسي في القدس، عهّد القنصل مقررًا إرسال مسدسات أو بنادق مفككة يعاد تركيبها بعد وصولها (٢٢).

كذلك حظيت "البعثة" بدعم السيد بابلون، عضو أكاديمية "لانسنيو" ورئيس الجمعية الفرنسية للتعقيب عن الآثار^{٢٣} الذي وجه، هو الآخر، رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية (٢٤). وهكذا، بفضل كل هذا الدعم الدبلوماسي، أصبح بوسع جوسين وسافينيّاك أخيراً إطلاق الرحلة الثانية. وبالفعل تقرر أن تتم الرحلة بالقطار انطلاقاً من عمان. في العام ١٢٢٧هـ (١٩٠٩م)، كان المهمة الأساسية استكمال الأعمال التي لم يكتم إنجازها خلال بعثة ١٢٢٥هـ (١٩٠٧م) إلى "مدائن صالح" وجوارها، ثم متابعة السير باتجاه تيماء^{٢٥} والعودة منها إلى "خربة" لالنتهاء في تبول^{٢٦} على خط السكة الحديد مروراً بمنطقة "حرا".

وقد ذهب جوسين وسافينيّاك إلى تيماء^{٢٧} على ظهر جمل وبقيا في منطقتها خلال عام ١٢٢٧هـ (من ٢٠ إلى ٢٠ آذار/مارس ١٩٠٩م). غير أنهم لم يستطيعوا المكوث في المدينة سوى يومين بسبب التوتر السائد فيها نتيجة للحرب بين القبائل.

في واحة "الخربة"، كان على جوسين وسافينيّاك اللجوء إلى الحيلة^{٢٨}: في عام ١٢٢٧هـ (١٢ مارس ١٩٠٩م)، قبل بزوغ النهار، انتحل أحدنا اسم إبراهيم أفندي دوي^{٢٩} المهندسين ليذهب بصحبة قائم مقام محلي في زيارة إلى المنطقة الأثرية الشهيرة (...). وفيما كان أحدهم يبدأ على التماثيل والنقوش الكتابية، (...) كان إبراهيم أفندي يتظاهر بعدم الاكتراث ملقياً نظرات خاطلة على هذه الأنقاض (٣٠).

كان الهدف من هذه اللامبالاة الكاذبة تجنب لفت الانتباه: "الخربة" قريبة جداً من "العلا" ومن الممكن أن يقوم سكان المنطقة في نهاية الأمر بطرد الباحثين عن النقوش.

السكة الحديدية (٣١). وقد ترك لنا الباحثان وصفاً في غاية الطرافة لرحلاتهما الثلاثة في مجلدات كتابهما "البعثة" حيث تغلب اللغة العلمية الجافة لولا ما تضمنه الوصف من حيوية. في رحلتها الأولى ١٢٢٥هـ (آذار/مارس - أيار/مايو ١٩٠٧م)، اشتغل الباحثان على موقع "مدائن صالح" النبطي الهام، وكان حصادهما من النقوش والكتابات والآثار والصور الفوتوغرافية وفيراً. ننظر مثلاً إلى النص التالي الذي سجلنا فيه عملهما اليومي في ذلك الموقع:

نخرج كل صباح حاملين على جمل اشتريدها من دركي سلماً ارتفاعه تسعة أمتار وقرية ماء، والآلات التصوير مع كل لوازمها، وكان يرفقتنا بدوي من "مداب" وأربعة جنود مدججين بالسلاح يتولون "مرافقتنا" حسب العبارة الدقيقة التي استخدمها النقيب زكي أحياناً، ينضم إلى "العصابة" أحد الدركيين العاملين في الفتحة أو الأطفال المقيمين في الجوار. وكان هؤلاء يرووننا من وقت لآخر بأسماء، مواقع تكرر الحديث عنها لدى العرب. وكنا نزرع القبور واحداً واحداً (ص ١٣٥-١٣٦).

من الممكن الجمع بين الرحلتين الثانية والثالثة ١٢٢٧هـ (شباط/فبراير - أيار/مايو ١٩٠٩م) و١٢٢٨هـ (نيسان/أبريل ١٩١٠م) باعتبارهما قد نُشرتاً معاً.

استدعى إنجاز الجزء الثاني من كتاب البعثة كثيراً من المساعي الإضافية من أجل الحصول على ترخيص الباب العالي. ذلك أن "الفرمان" (المرسوم) الأول لم يعد كافياً، وهذا ما دعا الراهب سيجوريني عام ١٢٢٦هـ (١٩٠٨م) بعد سنة من تركه دير القدس (٣٢) إلى دعم طلب تعديل "الفرمان" في كتاب وجهه إلى وزارة الخارجية الفرنسية يوم ٣ يوليو وأرسلت نسخة عنه إلى السفارة في الأستانة (استامبول) (٣٣). وقد تضمن كتابه طلباً باستصدار "إرادة" سلطانية (بمناية جواز سفر) لجوسين وسافينيّاك، اقتداءً بسابقة منح القسيس الويس موزيل، الأستاذ في النمسا والتلميذ السابق في معهد القدس (٣٤) جوازاً من هذا النوع.

وقد طاب قلب الدومينيكان الجديد بهدف تخطي العقبة المتمثلة في تحريم دخول الأماكن المقدسة على غير المسلمين (٣٥). وقد تم تعديل مسار الرحلة أخذاً بعين



جوسين في القدس
١٨٩٨-١٩٠٠

الخارجية إلى سفارتها في الأستانة سنة ١٢٢٨هـ (يوم ٤ أكتوبر ١٩١٠م) طالبة إليها الحصول على كتاب وزاريّ عثماني يرخّص بعودة البعثة (٢١). وهكذا، قبل عام من اندلاع الحرب العالمية الأولى، نجد بايلون يدعم مرة أخيرة فكرة الرحلة (٢٢). لكن الباب العالي واصل رفض الترخيص طالبا تعديل مسار البعثة بحيث لا يشمل الجنوب. وبالفعل منح ترخيص لمسار يحاذي ساحل البحر الأحمر متجنباً الداخل (٢٣). وافق قنصل فرنسا في القدس، جورج غيرو، على الطلب الجديد فكتب إلى وزارة

الخارجية كي تضغط على السفارة في الأستانة بحجة أن تراخيص كانت قد منحت في السابق مناطق تتجاوز جنوباً المسار المطلوب هذه المرة (٢٤). وكما في العام ١٢٢٦هـ (١٩٠٨م)، يشير هذا التلميح إلى تراخيص منحت لباحثين أجانب، وهو ما يذكره جوسين في رسالة أضافها إلى الملف (٢٥). بعد فترة قصيرة، أعلنت السفارة الفرنسية في الأستانة أن الباب العالي مصر على رفضه (٢٦). لذلك أدخل تعديل برنامج رحلة جوسين وسافينيكا عام ١٢٢٣هـ (١٩١٤م) بحيث تقتصر على بعثة واحدة لدراسة النقوش الكتابية في تدمر خلال صيف العام الذي أعلنت فيه الحرب.

الحرب الكبرى، من ١٢٢٣هـ (١٩١٤م) إلى انتهاء الاستنفار عام ١٢٢٨هـ (١٩١٩م)
جوسين:

أتى طرد رجال الكهنوت من القدس كحصولية لسياق متعثر: في عام ١٢٢٣هـ (الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤م)، أعلنت الامبراطورية العثمانية دخولها الحرب في البداية، اكتفت السلطات العسكرية التركية في القدس بتجميع رجال الدين المنتسبين إلى بلاط "عدوة" (فرنسا وإنكلترا وروسيا). وقد استخدمنا ثلاثة مصاصير وفي وصف هذه الأحداث: النص الذي نشره لاغرانج بعد ثلاثة أشهر من بداية الحرب ١٢٢٣هـ (حتى شهر فبراير ١٩١٥م) تحت عنوان "في القدس، أثناء الحرب" (٢٧). والنص الذي نشره الرهبان الصعديون "في دوريتهم" رسالة الشتات المطبوعة بباريس (٢٨) وضمتوه معلومات لم ترد في وثائق الدومينيكان (٢٩). ثم أخيراً محفوظات الرهبان الدومينيكان في دير سانت إتيان (٣٠) التي أوردت بعض التواريخ الهامة. ويستخلص

ومع ذلك، فإن حصيلة الأيام الثلاثة التي قضاهما جوسين وسافينيكا في "الخربة" كانت مجزية. وعند عودتهما إلى "مدائن صالح"، قرر الرجلان الاقتراب من ساحل البحر الأحمر. فدرسا منطقة "حرا" خلال أربعة أيام ثم عادا إلى "تبوك" بعد أن فشلوا في الحصول على الدعم المأمول من دمشق. ولمزيد من الاستفادة من رحلتهم، قرر الباحثان الدومينيكان الاشتغال هذه المرة على موقع أردني هو مادبا، فاستاجرا جمالاً لبولوجيا وأمضيا أسبوعاً خلال عام ١٢٢٧هـ (٢٣-٢٩ أبريل ١٩٠٩م) في دراسة بعض الدور الأموية وقصور الصحراء التي كانت شبه مجهولة في تلك الحقبة.

بعثة العام ١٢٢٨هـ (١٩١٠م) إلى شمال شبه الجزيرة العربية كانت أقصر من سابقتها. فهي انحصرت على الخربة وخاصة مركز قضائها العلا. هناك، على مقربة من المحطة، نصب الباحثان خيمتهما، وأثناء المباحثات من أجل الترخيص لهما بدخول "العلا"، زار الباحثان الفرنسيان المناطق المجاورة. وفي عام ١٢٢٨هـ (الثامن من أبريل ١٩١٠م)، حصلّا على الترخيص بدخول الواحة لياشرا في اليوم التالي عملهما في استنساخ نقوش كتابية عديدة وجداهما بين الانقراض وفي الدور والأزقة. وحيث أنهما شعرا بعودة السكان لهما، فإنهما عملا طوال ثلاثة أيام ثم انسجبا بعد أن شتم السكان بعض مستساخمتها (٣١). وبعد أن غادرا المنطقة، عملا أسبوعاً كاملاً في "الخربة"، حيث استكملا بنجاح باجر العمل الذي استغرق منهما ثلاثة أيام أثناء بعثة العام السابق.

إثر عودتهما إلى القدس، بعد دراسة عابرة لقصور الصحراء في شرقي الأردن (٣٢)، راود جوسين وسافينيكا حلم العودة إلى الحجاز. هذا ما تثبته رسالة وجهتها وزارة

وعارفاً بدروب فلسطين وباللغة العربية. توقفت القافلة في رام الله ثم في نابلس حيث استقل المطردون القطار من محطة صويلح القريبة إلى "عفولة" ثم دمشق. وانطلقت القافلة الثانية المكونة من ٣٣ عربية خيل من مقر المعهد حاملة الرهبان الدومنيكان (باستثناء جوسين الذي سيقيم) (١٤)، وكانت تضم لاغرانج ورئيس الدير كريشيه وأربعة رهبان آخرين يعملون في دير سانت إتيان.

في دمشق حيث وصل المطردون ليلة ١٧-١٨ ديسمبر، تعهدتهم القنصلية الإيطالية وأسكنتهم الشرطة في فنادق المدينة. لكنهم بعد يومين من وصولهم أبلغوا بأنهم لن يرحلوا إلى أوروقة وإنما إلى بيروت. ويعتقد لاغرانج (١٥) أن الفصل في هذه المفاجأة السعيدة التي وقتهم برد الشتاء، في بلدة نائية ومعادية يعود إلى تدخل حاسم من البابا بنوا ١٥ لدى سلطات دمشق.

هكذا التأم الشمل من جديد والتقى جوسين بزملائه من جماعة دير سانت إتيان. لكن فرحة اللقاء لم تدم سوى أربعة أيام ... وصل المطردون إلى بيروت بالقطار يوم ٢٢ ديسمبر حيث وضعوا تحت رعاية القنصلية الأميركية التي، على قول الشهود، لم تتورط بالاهتمام بأمرهم.

وقد احتفل الرهبان والراهبات المبعودون بعيد الميلاد في الفنادق التي وُضِعوا فيها. وكان معظمهم يرغبون بأن يرحلوا إلى مصر، وذلك لسببين: فهم يبقون في الشرق من جهة، ويمكن أن تستقبلهم الجمعيات الدينية العديدة هناك من جهة ثانية (١٦). في اليوم السادس والعشرين، ركب المبعودون متن سفينة "سيلا باليرمو" المتوجهة إلى "البيرة" في اليونان (١٧). أبحرت السفينة في الساعة العاشرة مساءً.

أحد الرهبان الدومنيكان وصف الجوُّ على ظهر السفينة بالعبارة التالية: ثلاثمائة راهب وراهبة مكسوس على ظهر السفينة تحت المطر دون أي غطاء، يحمي رؤوسنا. كان البحر هائجاً، وما لبثت العاصفة أن اندلعت! (١٨).

بعد ساعة من الانطلاق، أوقفت الطراد البريطانية "دوريس" المشاركة في حصار

من هذه المصادره أنه في عام ١٣٣٢هـ (السابع من تشرين الثاني ١٩١٤م)، تلقى رجال الدين من الدومنيكان و إخوانية القديس بطرس (١٩) إنذاراً بمغادرة مقرات نشاطهم التي تقرر تحويلها إلى ثكنات عسكرية تركية خلال خمسة أيام.

جرى تجميع الأثاث في الكنائس والمكتبات التي خُتمت بالشمع الأحمر (٢٠). وقد جرى تجميع الفرنسيين في كنيسة "توترام دو فرانس" في عام ١٣٣٢م (مطلع نوفمبر ١٩١٤م)، لكن القيادة العسكرية التركية قررت بعد فترة قصيرة جعل هذه الكنيسة مقراً لها وبالتالي إخلاصها من رجال الكهنوت "الأعداء". وبسرعة، تبلورت في دمشق فكرة طرد هؤلاء، وبالفعل صدر بذلك أمر صارم من جمال باشا. ويعتقد لاغرانج أن استبدال فكرة الاعتقال بالطرد جاء بقرار من الألمان الظاهريين إلى الحلول محل فرنسا في سورية والذين كانوا يرغبون بالتخلص "شبهود" من نوع رجال الكهنوت هؤلاء.

في الثالث من ديسمبر، أخبر رئيس دير الدومنيكان الراهب كريشيه أعضاء السلك بأن عليهم الاستعداد للطرْد إلى "أوروقة" (٢١) الواقعة شمالي مدينة حلب. مما أثار سخط لاغرانج الذي وصف طرد كهنة مسنين غير صالحين للقتال بالبربرية. وتتضمن رواية "الصعوديين" (٢٢) تفاصيل تكمل النص المتميز بالعمومية الذي نشره لاغرانج: في العاشر من ديسمبر أعد مركز تجميع في دير الدومنيكان، المعهد الإنجليزي، وفي الثاني عشر منه وصل رهبان بيت لحم (٢٣). واختير قنصل إسبانية مسؤولاً دبلوماسياً عن رعاية البلدان المعادية لتركيا (٢٤). وبهذه الصفة أشرف القنصل المذكور على ترحيل الرهبان والراهبات من القدس. يوم ١٣ ديسمبر أجريت الفحوص الطبية لرجال الدين ففتين أن الكثيرين منهم "مرضى وعاجزون عن تحمل السفر في الشتاء". إستأجر القنصل عربات خيل لترحيل المسنين والمرضى في ثلاث قوافل (٢٥). وفي نهاية يوم ١٥ ديسمبر، بلغ عدد رجال الدين المطرودين من فلسطين ١٦٢ شخصاً. ويروي لاغرانج أن رجال الشرطة التركية كانوا يقومون بتعداد المرحلين عند كل محطة توقف مرتين في اليوم.

انطلقت القافلة الأولى من المعهد الإنجليزي بقيادة جوسين الذي كان في ذروة صحته

(...) (اصطحب الضابط الإنكليزي الراهب الدومينيكاني جوسين برضاء إلى الطرادة للحصول منه على معلومات عن فلسطين وبالأخص عن الاستعدادات لحملة مصر^(٩).

هكذا، في لمح البصر، قرر جوسين التخلي عن استانه الميجل لاغرانج وعن رئيس الدير وسائر زملائه الدومينيكان، تاركاً إياهم لمصيرهم البائس الذي سيحلهم إلى أوروبا وهي في خضم حرب دموية. يبدو أن السعادة التي غمرت جوسين بسبب فرصة الذهاب إلى مصر جعلته يختار بلا تردد التحول إلى عسكري، علماً بأنه، خلافاً لصديقه سافينيكا، لم يكن مستنفراً للخدمة العسكرية^(١٠).

المدشش بمقاييس تلك الحقبة من الزمن هو أن جوسين لم يطلب الإن من أحد ولا من أية سلطة دينية. ومع ذلك فإن لاغرانج، الشاهد المباشر، لم يشر إلى الحادثة بكلمة واحدة في "المراسل". كأننا كان يرى سلوك جوسين طبيعياً. واعتقد أن مرء ذلك إلى حرص لاغرانج على الحفاظ على وحدة الصف ضمن فريق الرواد في المعهد الإنجليي. ولعله كان سعيداً لإفلات أحد أركان هذا الفريق من خنادق الحرب، لأنه كان يعرف أن مصر مكان آمن بالنسبة إلى جوسين الذي زارها مرات في الماضي. أضف إلى ذلك أن زملاء جوسين كانوا يتقنون ثقة مطلقة بخلاقته وتدينه. ألم يكن نائب رئيس الدير^(١١) ؟

هل كان "الهروب" إلى مصر خطة مدبرة ؟ التامل في التفاصيل يدلنا على أنها على الأغلب لم تكن كذلك. لأن جوسين لم يكن قادراً على التنبؤ بتتابع أحداث الأسبوع الذي تلا الخروج من القدس. أما اختيار مصر فإنه يبدو مشروفاً كان يراود جوسين منذ اتصالاته مع الإنكليزي في سينا، قبل الترحيل بسنوات. وقد نشر عن الموضوع عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) نص خيالي يروي فيه الكاتب وضابط البحرية "بول شاك"^(١٢) حكاية انخراط جوسين في الجيش البريطاني بالقاهرة، واصفاً إياه بأنه:

علاق عريض المنكبين يرتدي جلباباً كهنوتياً وله لحية يمتزج فيها الذهبي بالفضي فتضفي عليه جلالاً وبهاء، وهو عميق النظر، ضحوك من وقت لآخر، حليق الرأس حسب الأصول. كل هذا يبني عن ذكاء كبير وطبيعة قلب. حين تراه تشعر أنه خلق

السواحل العثمانية سفينة الميعدين، وهو ما تصفه الأخت "ماري فرانسواز" في رسالة الشتات - العدد ٢٤٦ الصادر سنة ١٣٤٦هـ (٢٠ نوفمبر ١٩٢٧م) بالعبارات التالية:

توقفت السفينة في الحادية عشر ليلاً بأمر من طرادة بريطانية ما لبثت أن أرسلت زورقاً إليها للتحقق من هويتها وهوية ركبائها. وحين رأينا العلم الإنكليزي علي صارية الزورق صفقنا بكل قوتنا هاتئين؛ تحيا إنكلترة. كان البحر هائجاً وكان الزورق البريطاني يرتفع أمام أنظارنا ثم يخفت. صعد الضابط البريطاني وزير السفينة بسرعة للتأكد من عدم وجود أتراك على متنها، ثم اصطحب معه الراهب الدومينيكاني جوسين بموافقة هذا الأخير ورضاه.

يوم الثلاثين من ديسمبر، وصل الميعدون إلى البيريه حيث تعهدهم ممثل فرنسا الذي نقلهم إلى "برينديزي" على متن السفينة "ميلانو". ومن هناك انتقلوا جميعاً إلى روما التي وصلوها يوم الخامس من يناير. وبهذه المناسبة، استقبل البابا "بنوا ١٥" في عام ١٣٢٢هـ (الثامن من يناير ١٩١٥م) الراهب لاغرانج وبعض الميعدين الآخرين.

جوسين، جاسوساً بريطانياً :

ثمة ثلاث إشارات إلى التحاق جوسين بالإنكليز، نجد الأولى منها في "رسالة الشتات" - العدد ٨٠ الصادر عام ١٣٢٢هـ (٧ يناير ١٩١٥م)، حيث نقرأ أن جوسين صعد على متن الطرادة دوريس ليروز بقيادة الأركان البريطانية بالمعلومات. وتجد الإشارة الثانية في العدد ٨٢ الصادر في ١٢ يناير من النشرة ذاتها عن تفاصيل أكثر دقة :

صعد إلى متن السفينة ضابطان بريطانيان وتوجها إلى الركاب ببعض الأسئلة، فاكشفنا أن جوسين واسع الاطلاع على شؤون سورية وفلسطين، ولذلك اقترحا عليه الذهاب معهم إلى الطرادة ووعده بإرساله سريعاً إلى مصر. ذهب جوسين مع الضابطين والسعادة بأية على وجهه. ولعله أخبر قيادة الأركان الإنكليزية في مصر بكل ما رآه في فلسطين وسورية، وزودها بمعلومات قيمة جداً (ص ٤٧). بطبيعة الحال، نجد الإشارة الثالثة إلى الموضوع في ما كتبه ماري فرانسواز في عدد "رسالة الشتات" الذي سبق ذكره :



سافينياك بعد ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)
الصورة من المعهد الإنجيلي



جدة ١٣٣٦هـ (١٩١٧م). البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز وضباط الاتصال مع الشريف حسين
الصورة من سافينياك



سافينياك وجوسين أثناء الحرب
الصورة من المعهد الإنجيلي

للقيادة كانه مفصل على مقاييسها، وترككم هو إنسان قوي !

يصف المشهد لقاءً مع المجلس الحربي للحلفاء في القاهرة تمّ بطلب من جوسين وترأسه ماكسويل، ليخلص إلى أن جوسين كان في غاية الثقة بالنفس في حواره مع أعضاء المجلس المعروفين بذكائهم. ويضيف أن جوسين قال لهم (ص ٢٠٩) :

أتيت إليكم لأنني لم يعد لديّ ما أعلمه هناك، فالأثرak يعلمون أنني دقيق الإطلاع على أوضاعهم ... ولحسن حظي، وصلت الطرادة دوريس قبل أن يرجّوا بي في السجن، وبذلك استطعتُ الإطلاع من قضيّتهم.

يحق لنا هنا الشك في جدية رواية بول شاك، إذ كان بوسع أن يعرف ملابسات طرد هؤلاء الرهبان من القدس. كذلك فإن الجملة التي نسبها إلى جوسين في حديثه مع قادة الأركان البريطانيين تطوي على مغالطة تاريخية: المخبرون الذين تعامل معهم أناس شرقاً، لا مرتوّفة، إنهم كانوا كاثوليك سوريين ولبنانيون ينجون فرساً^(١١). لأن لجوء جوسين إلى خدمات المخبرين والمعلومات الهامة التي استطاع تحصيلها منهم ببراعة واقعة ثابتة، لكنها لم تحدث إلا بعد انخراطه في "مصلحة الاستخبارات" الفرنسية البحرية في الشرق ومياشورته بإرسال فرق تجسس بحرية تزتاد السواحل السورية - اللبنانية لجمع المعلومات من المسيحيين المحليين.

ما كتبه بول شاك عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) يؤكد على الدور الهام الذي لعبه جوسين في

تزويد القيادة البريطانية في مصر بالمعلومات، لكن حديثه يبدو أصداء مضخّمة ومشوشة عن الانطباع الذي تركه جوسين كرجل ذي شخصية قوية يعرف ما يريد ويمتلك كثيراً من المعلومات، لكنه سرعان ما اعتراه الاضطراب لشدة نقشي الداساس والخصومات ضده حتى بين موظفيه أنفسهم. ومن الملحوظ أن روايات شاك عن الحرب لا تتضمن أية إشارة إلى سافينياك. فالشخصية القوية هي جوسين ولا أحد سواه.

ملاحظة أخرى تستحق التوقف : كيف أخذ الإنكليز جوسين على عاتقهم بسرعة ولم يفعل الفرنسيون ذلك ؟ كيف لم يتردد الإنكليز في استقبال مدني مثله على متن سفينة حربية، وهو أمر يخضع لقيود صارمة أثناء الحرب ؟

لم يكن جوسين يحمل أية وثيقة استغفار أو تكليف بمهمة حربية، والأغلب أن الإنكليز كانوا يعرفونه جيداً ! فمن الذي أخبرهم عنه ؟ لابد أنه أحد علماء الآثار الإنكليز المرافقين للكاينث ثورنس، وخاصةً رئيسه المباشر "وولي" الذي ربما كان على علم باخبار رحلات "البعثة" إلى شبه الجزيرة العربية التي كان جوسين يقودها مع سافينياك. ولعل "وولي" هو الذي أوعز بوضع اليد على جوسين، أو لعله الكولونيل ألفريد باركر الذي ورد في مذكرات له جميعها ونشرها إتش في إف ونستون^(١٢) أن باركر كان بين ١٣٢٤ و ١٣٢٦هـ (١٩٠٦ و ١٩٠٨م) يستخدم جوسين لإقامة اتصال مع "رهبان سانت كاترين" في سيناء^(١٣).

ولعل هذه العلاقة المتواضعة القديمة بين الاثنين تمثل أحد مفاتيح فهم ما جرى في عام

١٣٣٢هـ (ديسمبر ١٩١٤م) يوم صعد جوسين على متن الطائرة البريطانية "دوريس" لاشك في أن الإنكليز كانوا يعرفون جوسين ويقدرونه من قبل. ولقد المح ونستون إلى اتصالات أجراها باركر في العام ١٣٣٢هـ (١٩١٥م) مع المخبرين التابعين لجوسين من رهبان دير سانت كاترين في سيناء (ص ٧٧)، كذلك تحدث عن مبالغ من المال استلمها جوسين من باركر ليوصلها إلى هؤلاء العملاء أو ربما ليشتري بها ثياباً بدوية (ص ٨٦-٨٨)، ويعلق ونستون على ذلك بقوله:

سافينيكا:

كان الرهبان الدومينيكان الخمسة الذين هم في سن التجنيد قد استنفروا للقتال بمجرد إعلان الحرب على ألمانيا. وبالفعل غادروا القدس يوم الرابع من أغسطس، وقتئذ، لم تكن فرنسا في حرب مع تركيا، وكانت الاتصالات بينهما مفتوحة، ولم يرحل سافينيكا إلا يوم ١٧ أغسطس، باعتباره كان مع جوسين في بقعة أثرية إلى تدمير التي غادراها بسرعة إلى القدس في الثامن من الشهر ذاته.

قبل شهر من بلوغه سن الأربعين، وجد سافينيكا نفسه يعمل ممرضاً عسكرياً في مستشفيات جنوب غرب فرنسا، وثمة صور فوتوغرافية في محفوظات المعهد الإنجليزي الأثري تظهره ممرضاً في رودين. أما يومياته الحربية غير المنشورة، فإنها تخبرنا عن ملابس التحاقه بصديقه جوسين في بورسعيد. ثم قيامه خلال العامين ١٣٣٥-١٣٣٦هـ (١٩١٦-١٩١٧م) بعدة أسفار النقط خلالها صوراً لجزيرة ارواد وقناة السويس والسواحل الحجازية بما فيها جدة وينبع والوجه. وقد ذكر سافينيكا في دفتر يومياته الصغير هذا أنه غادر بيربينيا إلى طولون عام ١٣٣٤هـ (يوم ١٦ فبراير ١٩١٦م) ليكون تحت تصرف نائب الأميرال، قائد الفرقة البحرية الثالثة، صديقه جوسين. وذلك بأمر من وزير الحرب.

إننا نجعل كيف استطاع جوسين إقناع القيادة بإرسال سافينيكا إليه. لعله كان بحاجة إلى مساعدة فتذكر رفيقه في "البعثة إلى شبه الجزيرة العربية" وطلبه. إنها رفقة تجاوزت مدتها العقدين من الزمن بين شخصين يخلوهما موقعهما وتاريخهما طلب ما لا يمكن تلبية له لو تعلق الأمر بمجندين عابدين ... بقيادة البحرية الفرنسية كانت تستمد قوتها من

١٣٣٢هـ (ديسمبر ١٩١٤م) يوم صعد جوسين على متن الطائرة البريطانية "دوريس" لاشك في أن الإنكليز كانوا يعرفون جوسين ويقدرونه من قبل. ولقد المح ونستون إلى اتصالات أجراها باركر في العام ١٣٣٢هـ (١٩١٥م) مع المخبرين التابعين لجوسين من رهبان دير سانت كاترين في سيناء (ص ٧٧)، كذلك تحدث عن مبالغ من المال استلمها جوسين من باركر ليوصلها إلى هؤلاء العملاء أو ربما ليشتري بها ثياباً بدوية (ص ٨٦-٨٨)، ويعلق ونستون على ذلك بقوله:

كان باركر على صلة وثيقة بجوسين خلال أشهر موقعة "الدردنيل". في ١٣٣٢هـ (أغسطس ١٩١٥م)، استلم باركر تقريراً من جوسين كتب في أعلاه: للاستعمال الشخصي من الكولونيل باركر والمajor نيوكومب (١٠).

وفي ١٣٣٤هـ (يوليو ١٩١٦م)، ذكر ونستون أن يدويًا محتالاً يدعى "عودة بن زبيدة" كان عميل جوسين في الحجاز (١٠). يبدو من كل هذا أن جوسين عمل في بداية الحرب لحساب الإنكليز أكثر مما عمل لحساب الفرنسيين، ثم انقلبت المعادلة بعد ذلك.

لم نغفر في المراجع المتاحة على أي ذكر لطريقة عمل الضابط المترجم، فلا هو ولا سافينيكا لم يشير إلى الموضوع بعد استقرارهما في بورسعيد. كل ما عرفناه من دراسة التقارير العسكرية والدبلوماسية هو حصيلة عمل الرجلين. يضاف إلى ذلك أن جوسين كان أثناء الحرب أقل سفرًا من زميله، لكنه أبحر إلى عدن عام ١٣٣٤هـ (١٩١٥م) حسب مقال نشره في مجلة الكتاب المقدس (١١) ثم عاد عبر السويس إلى قاعدته في بورسعيد.

وأثناء رحلة العودة وجد الوقت لمراجعة ملاحظاته عن النقوش والكتابات التي سبق له أن استنسخها. وقد قام برحلته هذه على متن سفينة حربية بريطانية. خلال شهري يوليو وأغسطس، كان متن السفينة "هاردنغ" التي حملته إلى جزيرة صغيرة على ساحل الحجاز (١٢)، لكن صور جوسين الجميلة لمدينة جدة التقطت على ما يبدو خلال رحلة أخرى قام بها في العام ذاته على متن السفينة الفرنسية "ديسكس" التي حملته إلى شواطئ البحر الأحمر (١٣).

في عام ١٣٣٥هـ (بين ١٤ فبراير و ٦ مارس ١٩١٧م)، سافر جوسين إلى الحجاز، قبل

نام في خيمة قبالة مخيم الأرمن^(١٨)، وهو يصف هذه الرحلة بالتفصيل في يومياته غير المنشورة^(١٩).

رحلات سافينيكاك الثلاثة:

في عام ١٣٣٤هـ (يوم ٢٤ أبريل ١٩١٦م)، اشغل سافينيكاك على بطاقته، فجوسين أعلمه بأنه سيسافر غداً إلى جزيرة أرود على الساحل السوري، وهي القاعدة الثانية للمخابرات الفرنسية في المنطقة، ففيها كان يجري الاتصال بالمخبرين اللبنانيين والسوريين. من قراءة دفتر يوميات سافينيكاك، ندرك أنه سافر وحيداً إلى أرود تاركاً جوسين في بورسعيد. بذلك يتأكد أن كافة صور هذه الجزيرة السورية من عمل سافينيكاك (٧٠). والواقع أن المدة التي قضاها هذا الأخير في أرود كانت مكسرة في معظمها لوصف الجزيرة ولجرد المكتشفات الأثرية التي جمعها حاكم الجزيرة الملازم في البحرية "ترايو"^(٢١). لكن هذا الانشغال "العلمي" لم يمنع سافينيكاك من الاتصال بمخبريه الذين وصلوا الجزيرة سرّاً على متن زورقين حربيين فرنسيين. وفي الأول من مايو، ذهب سافينيكاك على متن "لو لأوريو" للقيام بعملية استطلاع في منطقة مصب "النهر الكبير". جدير بالذكر هنا أن الاتصال بالعملاء كان يتم أيضاً في مدينة "قوماغوستا" القبرصية دون المرور بسافينيكاك^(٢٢).

في سنة ١٣٣٤هـ (الجمعة ١٣ مايو ١٩١٦م)، عاد سافينيكاك إلى بورسعيد على متن "الولنلجور" حيث أعد تقريره عن المهمة المنجزة^(٢٣). وبعد اجتماع مطول بين جوسين ومخبر لبناني تدعوه يوميات سافينيكاك "السيد XXX"، وأعاد جوسين صياغة التقرير وأرسله إلى باريس موقّعاً باسمه. وفي الثاني من يونيو، أرسل سافينيكاك في مهمة حملته إلى جزيرة كاستيلهوريزيو^(٢٤). هناك استسلم قليلاً لهوائياته العلمية قبل أن يستغرق في أداء مهمته الجاسوسية بمعونة ضابط شاب. وكان بيكار "والبريطاني وولي" قد سبقاه إلى الجزيرة. وبعد أن أنهى عمله في الاستطلاع البحري، قضى سافينيكاك خمسة أيام في جزيرة رودس (من ١١ إلى ١٥ يونيو)، ثم عاد يوم ٢٦ يونيو إلى بورسعيد^(٢٥).



مراسم تقيّد جوسين وسافينيكاك وسام "حديقة الشرف" في المعهد الإنجليزي بالقسيس ديسمبر ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م)

وفرة وفعالية عناصر المخابرات بين صفوفها^(٢٦). وقد نجح سافينيكاك بسرعة في أن يصبح مساعداً محبباً لجوسين، على الرغم من نزوع هذا الأخير إلى المشاكسة.

لدى مغادرته ميناء طولون، كان سافينيكاك يحمل رسمياً صفة "ممرض مفرز إلى المستعمرات". لكنه بمجرد وصوله إلى بورسعيد عاد إلى دوره ومهمته الحقيقيين. ويصف سافينيكاك رحلته إلى مصر في يومياته بدقة:

في سنة ١٣٣٤هـ (الخميس ٢٤ فبراير ١٩١٦م)، وصلت بورسعيد في الثالثة صباحاً. وقد أصبحت المدينة ميناءً حربيّاً ترسو فيه طرادات وبوارج فرنسية كثيرة. أذهب إلى السفينة الحربية جان دارك "لملاقاة جوسين ... المقيم في خيمة بملحق "مونكالم" (٢٧). وأنا أسكن في "بنسيون" هناك مع العاملين في ورشة ذلك الموقع. وأعمل مع جوسين.

بعد يومين من وصوله، استقبله "ولي" رئيس مكتب المخابرات البريطانية. وفي يوم ٤ أبريل، أبحر سافينيكاك في قنّاة السويس توقف خلالها ليلة عند الكيلومتر ٥٢ حيث

رحلة سافينيكا الثالثة كانت حربية بالمعنى المباشر للعبارة : في الثامن من أغسطس، أبحر على متن "البوتو" حيث كلف بمهام "الشيفرة" مع الدكتور غوسين. وكانت سفينته على رأس أربعة سفن حربية فرنسية ذهبت لتقصّف سواحل "كيليكيا" التركية بالاشتراك مع أسطول الحلفاء المتضمن حاملة طائرات بريطانية. وكانت هذه المهمة أول عماد له بنيران الحرب الحقيقية، حيث شاهد قصف مدينة "ملرسين" واشتعال مستودع للنفط ومصنع فيها وألقت طائرة ألمانية قذيفة على سفينته (٨٦). وبعد أربعة أيام، عاد سافينيكا إلى الإسكندرية ومنها إلى بورسعيد. وهنا تسخّ المعلومات في "يوميات" سافينيكا، باستثناء، وصف سريع للأضرار التي أحدثها قصف الطيران الألماني على بورسعيد، وإشارة هامة عن الرحلة إلى جدة سنة ١٣٣٥هـ (مطلع مايو ١٩١٧م) ملاحظات في دفتر خاص (٨٧). في هذه المهمة الجديدة، قصد سافينيكا ساحل الحجاز دون أن يكون بصحبة جوسين الذي زار المنطقة قبله بشهر واحد. إننا مدينون لسافينيكا وحده إذاً بجموعة الصور الفوتوغرافية الرائعة التي

إنقلّ جوسين وسافينيكا من بورسعيد إلى القدس، وأن بقيا مستغربين داخل الدير حيث أمضيا لحظات سعيدة واحتفلا مع الرهبان الآخرين بتحرير فلسطين من الأتراك. بإعلان الهدنة في الحادي عشر من نوفمبر، قرع الإنجليز النواقيس الألمانية كلها، بينما بقيت النواقيس الكاثوليكية حيادية.

في اليوم التالي عاد لأخراج بصحبة تلميذه الملازم تيسيران (٨٨) هكذا عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي (٨٩).

التكامل بين الرهبانين جوسين وسافينيكا لا يزال واضحاً، وإن كانت بعض الفوارق قد أصبحت جلية بالقياس إلى مرحلة ١٣٢٥-١٣٢٦م (١٩٠٧-١٩١٢م) أثناء البعثة إلى شبه الجزيرة العربية. سافينيكا هو الآن الرجل الثاني المناسب إنه مهتم بالآثار ويوصف الطيبة والنفوس والكتابات، علاوة على هوائيه الإنسانية، التصوير الفوتوغرافي. وهو إنسان مرح، سريع الألفة، يعين حرياً ضئيلة الخطورة لا تتعبه عن حياته الدينية أو بوحه العلمية.

هكذا، أصبح بإمكانه أن يقيم القداس كل يوم على السفن الحربية أو في البر (٩٠). وهو دائماً منشغل البال بمشاوراته العقيلة، يسجل ملاحظات وأفكاراً بشأنها بينما جوسين يبدو أقرب إلى السياسي الطموح (٩١). فهو يريد أن يخلف مروره في جهاز الاستخبارات بصمات شخصية لا تضحى. لهذا نراه احتفظ لنفسه بصياغة الخلاصة السياسية الإجمالية.

في العام ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م)، قطف الرجلان ثمار جهدهما :

رحلة سافينيكا الثالثة كانت حربية بالمعنى المباشر للعبارة : في الثامن من أغسطس، أبحر على متن "البوتو" حيث كلف بمهام "الشيفرة" مع الدكتور غوسين. وكانت سفينته على رأس أربعة سفن حربية فرنسية ذهبت لتقصّف سواحل "كيليكيا" التركية بالاشتراك مع أسطول الحلفاء المتضمن حاملة طائرات بريطانية. وكانت هذه المهمة أول عماد له بنيران الحرب الحقيقية، حيث شاهد قصف مدينة "ملرسين" واشتعال مستودع للنفط ومصنع فيها وألقت طائرة ألمانية قذيفة على سفينته (٨٦). وبعد أربعة أيام، عاد سافينيكا إلى الإسكندرية ومنها إلى بورسعيد. وهنا تسخّ المعلومات في "يوميات" سافينيكا، باستثناء، وصف سريع للأضرار التي أحدثها قصف الطيران الألماني على بورسعيد، وإشارة هامة عن الرحلة إلى جدة سنة ١٣٣٥هـ (مطلع مايو ١٩١٧م) ملاحظات في دفتر خاص (٨٧). في هذه المهمة الجديدة، قصد سافينيكا ساحل الحجاز دون أن يكون بصحبة جوسين الذي زار المنطقة قبله بشهر واحد. إننا مدينون لسافينيكا وحده إذاً بجموعة الصور الفوتوغرافية الرائعة التي التقطها لكل من جدة وينبع والوجه. ويذل أسلوب اللقطات على أن الرجل كان في هذه المهمة مرتاحاً هادئ البال كما في رحلته إلى جزيرة أرواد. وتربنا هذه الصور أعضاء البعثة العسكرية الفرنسية إلى الحجاز وهم يرافقون هذا "الراهب الجندي" في زيارة إلى جدة وضواحيها (٨٨) وإلى ينبع والوجه. وكل هذه الصور لم تكن ذات أهمية عسكرية (٩٠). أثناء ذلك، كان جوسين في مصر يتخطى في زراعات جهاز الاستخبارات الفرنسية التي كانت تستهدف شخصياً.

العودة إلى القدس:

في عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)، تبدل الوضع جذرياً، فقوات الحلفاء (المتثلة أساساً بالفيالق البريطانية) دخلت القدس في الثامن من ديسمبر بقيادة الجنرال اللبني، وسمح لكل من جوسين وسافينيكا بزيارات قصيرة إلى المدينة المقدسة مع بقائهما تحت الاستفغار في مقر علمها في بورسعيد. وفي نشرة الرهبان "الصعوديين" إشارات مقتضبة عديدة إلى هذه الزيارات (٩٠) وإلى وقائع ثانوية أخرى مثل نهب اثاث

في سنة ١٢٣٩هـ (الخبث، ٣٠ ديسمبر ١٩٢٠م) في العاشرة صباحاً، تحية السلاح في ديرنا ومنع وسام جوقة الشرف لجوسين وسافينيكا من يد الأيرال مورنيه. كان احتفالاً رائعاً (٨٨) ألقى فيه الأيرال كلمة تكريم للأيرالين الفرنسيين الذين أديا واجبهما في الدفاع عن الوطن (٨٩). عن هذا الاحتفال، تحدث نشرة الرهبان «الصعوديين» عن الاحتفال فقالت: كان الشعور بالرضى عاماً لتقليد جوسين وسافينيكا وسام الشرف، تقديرًا للخدمات التي قدمها إلى البحرية الفرنسية أثناء الحرب (٩٠).

تدعونا الوثائق المتعلقة بفترة الحرب إلى إعادة النظر في الترجيح بين جوسين وسافينيكا، سواءً بصفتهم ضابطين مترجمين أو بصفتهم مصورين فوتوغرافيين. في الواقع كان جوسين هو الرئيس، صاحب المبادرات كلها. وهذا ما تشهد به تقارير الإنجليز. وما يدعو إلى الدهشة أن هؤلاء كانوا على اتصال به قبل الحرب، مما يفسر، جزئياً على الأقل، تخلي جوسين المفاجئ عن رفاقه المبعدين وانتقاله طواعية إلى الطرادة البريطانية «دوريس» في عرض البحر قرب شواطئ بيروت. ولعل هذا ما يفسر أيضاً صمت لاغرانج الذي كان يعرف على الأغلب أن الاتصال بين جوسين والضباط الإنكليز قديم العهد. لهذا بدا له تعاون جوسين التام مع الإنكليز أمراً طبيعياً.

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن كشوف حسابات الكولونيل باركر تطوحي على مبالغ نفعت إلى جوسين. كما أن بحوث السيد لوران في المحفوظات الدبلوماسية والعسكرية اتاحت لنا فهم ملابس تحول جوسين من خدمة الإنكليز إلى الالتحاق بجهاز المخابرات الفرنسية في الشرق. ومنذ تلك اللحظة، أصبح جوسين نائب رئيس المكتب العسكري الفرنسي، مما خوله حق استدعاء، صديقة سافينيكا للعمل معه. فيما يتعلق بالصور الفوتوغرافية، لا شك في أن ميزان القوى بين الرجلين أصبح معكوساً: فسافينيكا هنا هو الأول والأكثر إبداعاً: في قناة السويس وبورسعيد وجزيرتي أرواد وكاستيلوريزينو كان المصور هو سافينيكا. وفي مدن الحجاز البحرية الثلاثة يبدو أنه كان أيضاً المصور الوحيد، وإن بقي بعض الشك يغلغ هذه النقطة. ذلك أن

جوسين أقام في منطقة الساحل الحجازي في سنة ١٣٣٥هـ (خلال شهري فبراير ومارس ١٩١٧م)، أي قبل قدوم سافينيكا إليها بقليل (٩١). هكذا، يتألف معرض الصور الفوتوغرافية من شطرين: الأول يتعلق بالبعثة الأتارية، وهو يتيح لنا اكتشاف أسلوب كل من المصورين عبر اللقطات التي يقدمانها، في حين يغطي الشطر الثاني فترة الحرب حيث تهيمن نظرة سافينيكا وتقنيته.

الراهب جان ميشيل تاراغون

أستاذ في المعهد الإنجيلي الأتاري الفرنسي في القدس

ملاحظات:

- (١) عنوان الكاتالوج الذي نفذت طبعته لسوء الحظ: «سارات الإنجيل. صور مجموعة المعهد الإنجيلي الأتاري الفرنسي في القدس في مطلع القرن العشرين الميلادي». وقد قدّمه الراهب ج. م. دوتاراغون ومفوض المعرض بيار دوفان. الناشر: معهد العالم العربي والمركز الإنجيلي للتصوير الفوتوغرافي في نور بادوكاليه.
- (٢) دعا د. زاهر عثمان كلاً من عالم الآثار في المعهد، الراهب جان باتيست فوسير وكاتب هذه السطور إلى الرياض في سنة ١٤١٨هـ (ديسمبر ١٩٩٧م) وبعد استعراض كافة نسخ الصور المتوفرة في مكتبة الصور في المعهد عن «البعثة إلى شبه الجزيرة العربية وعن الساحل الحجازي، اختار بمشورتنا الصور التي ستقدم في المعرض.
- (٣) انظر عرضنا السريع لانشطة جوسين وسافينيكا في العهد القديم، مادة عام من العمل في الشرح والتفسير في المعهد الإنجيلي الأتاري الفرنسي (مجلة الكتاب المقدس، العدد رقم ٣٨) وأ. جوسين، مسيرة حياة رجل دين في كتاب «من تفسير الكتاب

- ٢٩) المجلد ٢ ص ١١-١٢
- ٣٠) بحجة التبعات من عدة الأثران
- ٣١) انظر البنية، المجلد ٢ المنشور عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).
- ٣٢) رسالة من الخارجة الفرنسية إلى الأستانة
- ٣٣) رسالة من بابلون إلى الخارجة، ١٣٣٢هـ (١٩١٣/١/١١م).
- ٣٤) بلغت الوزارة مضمون الطب إلى استامبول مع الدعوة إلى رد إجابي.
- ٣٥) رسالتان من السفارة الفرنسية لدى الباب العالي إلى الخارجة، ١٣٣٢هـ (٢٨ و ٣١ يناير ١٩١٤م).
- ٣٦) رسالة من القنصل إلى الخارجة، ١٣٣٢هـ (٢٠ فبراير ١٩١٤م).
- ٣٧) رسالة من الخارجة إلى استامبول في ١٣٣٢هـ (١٤ مارس ١٩١٤م).
- ٣٨) مستند الحج ذاتها
- ٣٩) رسالة من السفارة في استامبول إلى الخارجة، ١٣٣٢هـ (٢٧ مارس ١٩١٤م).
- ٤٠) مأخوذة عن «لو كوريسوندان»، باريس ١٣٣٢هـ (١٩١٥م).
- ٤١) منشورات «لا ميرون» و «لايون برس»
- ٤٢) نحن ميون مدينة أخرى إلى دومينيك ترمور الذي أطلعنا على وثائق «الريان الصهيونيين».
- ٤٣) مصادر متنوعة
- ٤٤) تالة لافرانج الذي أوكل سلفه سيجوريني بلف البقية لبقائه حتى ١٣٣٢هـ (١٩١٣م).
- ٤٥) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، باريس - السلسلة الجديدة، السياسة الخارجية التركية في العدد ٣٩٤ رسالة من سيجوريني إلى الوزارة مؤرخة في عام ١٣٣٦هـ (٣ يوليو ١٩١٨م).
- ٤٦) رسالة من الوزارة إلى الأستانة مؤرخة في عام ١٣٣٦هـ (٦ يوليو ١٩١٨م).
- ٤٧) في المعهد، ١٣٣٢-١٣٣٥هـ (١٨٩٥-١٨٩٧م).
- ٤٨) ظهر الاحتجاج في برفية من السفارة الفرنسية لدى «الباب العالي» إلى وزارة الخارجية مرسله في ١٣٣٥هـ.
- ٤٩) «في هذا اليوم ١٤ ديسمبر، الساعة ٩ مساءً، اعتقلت الشرطة للريهان الدومينيكان الفرنسيين ...» ب. مونتاني.
- ٥٠) ص ٢١ من كراسه.
- ٥١) غير الدومينيكان، لكنهم وجدوا بسهولة من يستضيفهم
- ٥٢) تذكر «رسالة الشنات» أن الفاتيكاني (لا أميريكاني) هو الذي
- دفتران، دون أن ننسى دفتري سوفيانيك المتعلقين ببيومات الحوب.
- ٥٣) كذلك بعثات مورغان الأثرية إلى إيران.
- ٥٤) رحلة ١٣٣٦هـ (١٩١٢م) كانت مخصصة للقصور الأنوية في شرقي الأردن.
- ٥٥) إقالة البعثة سنة ١٣٠٢هـ (يوليو ١٨٨٤م) على مقربة من جدة.
- ٥٦) الصور ذات الحجم الكبير تتميز بتوفرها على «نجانيات» ممتاز من حيث الجودة.
- ٥٧) عام ١٣٣٥هـ (١٩٠٧م)، تعطلت الأعمال في التوقيع للدعو «مصطبة»، واستدعى الوصول إلى مدائن صالح خمسة أيام سفر على ظهر الدواب.
- ٥٨) مجلة «استوار» العدد ١٩، ١٣٢٨هـ (يناير ١٩٩٩م).
- ٥٩) ص ٢٨-٢٩.
- ٦٠) لسوء الحظ كانت المواقع الأثرية موضوع التناقص على الحدود الفاصلة بين ولاية دمشق المتفحمة على نشاط البعثات الأثرية وولاية المدينة المنورة المتحفظة جداً جبالها.
- ٦١) عمل بول ماري سيجوريني رئيساً للدير بين ١٣١٩هـ (١٩٠٠م) و ١٣٣٥هـ (بين يوليو ١٩٠٦م و يوليو ١٩٠٧م بحيث غطى فترة «البعثة» إلى شبه الجزيرة العربية، في ١٣٣٥هـ (ربيع ١٩٠٧م). ثم تالة لافرانج الذي أوكل سلفه سيجوريني بلف البقية لبقائه حتى ١٣٣٢هـ (١٩١٣م).
- ٦٢) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، باريس - السلسلة الجديدة، السياسة الخارجية التركية في العدد ٣٩٤ رسالة من سيجوريني إلى الوزارة مؤرخة في عام ١٣٣٦هـ (٣ يوليو ١٩١٨م).
- ٦٣) رسالة من الوزارة إلى الأستانة مؤرخة في عام ١٣٣٦هـ (٦ يوليو ١٩١٨م).
- ٦٤) في المعهد، ١٣٣٢-١٣٣٥هـ (١٨٩٥-١٨٩٧م).
- ٦٥) ظهر الاحتجاج في برفية من السفارة الفرنسية لدى «الباب العالي» إلى وزارة الخارجية مرسله في ١٣٣٥هـ.
- ٦٦) «في هذا اليوم ١٤ ديسمبر، الساعة ٩ مساءً، اعتقلت الشرطة للريهان الدومينيكان الفرنسيين ...» ب. مونتاني.
- ٦٧) ص ٢١ من كراسه.
- ٦٨) غير الدومينيكان، لكنهم وجدوا بسهولة من يستضيفهم
- ٦٩) تذكر «رسالة الشنات» أن الفاتيكاني (لا أميريكاني) هو الذي
- المقدس إلى الإثنوغرافيا العربية بإشراف شاتلار وطراوية.
- ٧٠) منشورات «سيزمون» - عمان/بيروت ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).
- ٧١) ١٣٢٧-١٣٥٧هـ (١٨٥٥-١٩٣٨م)، ليو، وصوله كان عمر المؤسس ٣٥ سنة فقط.
- ٧٢) للزويد من التفاصيل عن مرحلة تكوينه الثقافي، راجع «سماعاتنا الثانية» في الكتاب المذكور أعلاه. أ. جوسين، مسيرة حياة رجل دين مسيحي (رقم ٣).
- ٧٣) نص مدير القافلة والصور الفوتوغرافية الراهب سيجوريني مفتس عن رحلة الأنجيل، ١٣٣٥هـ (١٨٩٧م).
- ٧٤) انظر «التاريخ من نخل إلى التيرا» - مجلة الأنجيل، ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، ص ٤٤٣-٤٤٦.
- ٧٥) منشورات جابالادا، باريس ١٣٣٦هـ (١٩١٨م).
- ٧٦) منشورات غوتشر، ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م).
- ٧٧) في العام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) اغتنت المجموعة بإيداعات من الراهب ريشار ماتيس، مدير مركز نوتردام في القدس، بلغت ١٥٦٦ صورة.
- ٧٨) زجاجية سالية حصل عليها من مجموعة الريهان الصهيونيين في كنيسة نوتردام دو فرانس دون إيفان صمغرها.
- ٧٩) يمكن أن نضيف إلى ذلك كالتجالات المعارض الفوتوغرافية وهي ثلاثة بما فيها المعرض الراهب. المعرض الأول كان مسارات إجنيلي المصدر المذكور أعلاه. في المرجع رقم ١.
- ٨٠) الهدف المتوخى هو وضع كافة الصور السالية والموجبة على أقراص كمبيوتر مضغوطة في إطار بنك معلومات، مما يتيح الاحتفاظ بنسخة حادية في فرنسا.
- ٨١) وصفنا هذا الجهاز في «مسارات الأنجيل» ص ٩-١١.
- ٨٢) دفتر سجل البعثات لا يزال موجوداً - وهو يتضمن إشارة إلى بعثات أرسلت إلى: سينا، ١٣٣٤هـ (١٨٩٦م)، سينا، ١٣٣٦هـ (١٩٠٣م)، القبط ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، حوران ١٣٣٣هـ (١٩٠٤م)، القبط ١٣٣٣هـ (١٩١٥م)، سينا، ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، مصر ١٣٣٦هـ (١٩١٨م)، البحر الميت ١٣٣٦-١٣٣٧هـ (١٩١٨م).
- ٨٣) سينا، ١٣٣٢هـ (١٩١٣م)، تدمر ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).
- ٨٤) عسقلان ١٣٣٣هـ (١٩١٥م)، بيت جبرين ١٣٣٤هـ (١٩١٦م).
- ٨٥) نائلس ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م)، جبل الزيتون ١٣٥١-١٣٥٣هـ (١٩٣٣-١٩٣٥م).
- ٨٦) جنوب شرقي الأردن ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، بالإضافة إلى السبع الأصلية من «البعثة» إلى شبه الجزيرة العربية، ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).
- ٨٧) دفتران، ١٣٣٧هـ (١٩١٩م)، دفتران، ١٣٣٨هـ (١٩١٩م).

سند ثمن معظم البطاقات. ص ٤٥.

٥٣ مونتيني. ص ٤٨.

٥٤ يقي سؤال لماذا لم يستقر جوسين مثلاً استنفر سافينيان بعد عودته من ندمر في عام ١٣٣٢ هـ (أغسطس ١٩١٤م). هل كان ذلك بسبب شيوخته أم لأنه كان يعمل منذ ذلك الحين في الاستخبارات ؟

٥٥ حين عام ١٣٣١ هـ (١٩١٢م) وبقي في منصبه طوال الحرب. وكان بهذه الصفة رئيس لأغراخ

٥٦ «مقاتل في البحر»، «مشورات فرنسا»، باريس ص ٢٠٦-٢١٣.

٥٧ ص ٢١١.

٥٨ مذكرات باركر باشا. لندن ١٤٠٢-١٩٨٣م). ص ٢٤. لعل الأمر يتعلق بالاستسلام من البدو العاملين في المير والذين كان

جوسين يعرفهم.

٥٩ بالفرنسية في النص الأصلي.

٦٠ النص السابق، ص ٢٠٦، «عودة رجاله هاجموا تسعة المائتين».

٦١ ج. ب. ص ٢٤. عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٥م). ص ٥٩-٥٧٣.

٦٢ وستون، ص ٩٢. منذ ذلك الحيات، احتل الحلفاء جزيرة «حسانتي».

٦٣ وستون، ص ٨٨. «بينو أن جوسين كان نشيطاً جداً في تلك الفترة، خاصة بين رؤساء القبائل في صعيد مصر والحجاز وسينا. واعتقد أنه يعمل للخبارات الفرنسية والبريطانية على السواء».

٦٤ مقدمة قيمة حصلنا عليها من هنري لورانس. مشكوراً.

٦٥ المصدر السابق، صورة فوتوغرافية مقابل ص ١٦٠. تربتا جوسين في ثياب رجل الدين بدلاً من الملابس العسكرية، وهو يتجول في خان يونس.

٦٦ جهاز خبايا البحرية الفرنسية في الشرق.

٦٧ هل يتعلق الأمر بسفينة حربية ؟ لا لأن الناس ينامون هناك تحت النخلة. أغلب الظن أن السفينة الحربية الفرنسية «موتكالم» قد

أقامت قلائتها على رصيف الشاطئ، مخبراً أو مخبياً ملحقاً بها.

٦٨ أنظر الصور التي اختارها بيار دوفان في «سارات الكتاب المقدس» ١٤١٥ هـ (١٩٩٥م). ص ٤٨-٥٣.

٦٩ إشارة سافينيان إلى هذه المجموعة من الصور في منطقة القنال تدل على أن جوسين لم شارك في التناطها.

٧٠ أنظر الصور في «سارات الكتاب المقدس»، ص ٦٢ و ٦٥. مقال في المجلة الإنجيلية، ١٣٣٤ هـ (١٩١٦م). «خواطر زيارة إلى جزيرة إرواد»، ص ٥٦٥-٥٩٢.

٧٢ ضباط آخرون من زملاء جوسين أو رؤسائه في بورسعيد.

٧٣ دفتر بخط يد سافينيان، في التاريخ المذكور أعلاه.

٧٤ كلمة تُعَرَّف في كتابة اسم هذه الجزيرة.

٧٥ كان حقبة «كانستيلهوريزو» موضوعاً لمقائيل مجهولين نشرها جوسين وسافينيان موقعين بالأحرف الأولى من اسميهما.

٧٦ دون أي ارتباط، النقطة سافينيان ست تصور «الحرائق» مدينة مرسينا، البهلوان ...

٧٧ ضاع عهد «الدفتر الخاص».

٧٨ توجد صورتان للضباط الفرنسيين مع «مراسلميه»

الحجازيين والمبني الذي أقامت فيه «البعثة العسكرية الفرنسية إلى الحجاز».

٧٩ بين باحني الآثار الذين سبقوا جوسين وسافينيان، يمن أن تذكر يوليو أوتنغ الذي وصل إلى الوجه في عام ١٣٠٢ هـ (أبريل ١٨٨٤م) قادماً من مدائن صالح والعلا. وهو ما حاول القيام به

جوسين وزييله

٨٠ عاد إلى القدس في عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨/١١/٢٣م).

٨١ «توفيل»، العدد ١٥٧ الصادر في عام (١٩١٧/١٢/٢٠م).

٨٢ «استعديت الكتب والمعهد كان أثناء الحرب في حراسة

الدومينيكان اللبناني صوميط وبعض الرهبان السويسريين وفد تعيش هؤلاء مع الضباط الترك ثم الجنود الإنكليز من بعدهم في

المبنى. وبذلك حافظوا عليه.

٨٣ دفتر أسود صغير، يوميات ١٣٣٠-١٣٣٩ هـ (١٩١٢-١٩١٦م). ص ٤١ بخط إيل.

٨٤ تعني عبارة «تصوير النقوش المجلوبة من ندمر» تصوير النقوش المستنسخة.

٨٥ انتهى استنفاً سافينيان في عام (١٩١٩/٢/١) وتذكر محفوظات الرهبان الدومينيكان أن جوسين ترك الخدمة العسكرية في الفترة ذاتها.

٨٥ في عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٩/٧/٤م). أعاد السير إلى القوسية الفرنسية الآلة الكتابة التي أعاربتها البحرية إلى جوسين. وكانت الآلة الكتابة تامة في ذلك الوقت ...

٨٦ ذكراً أ بواعيد الذي يزيده القبطان.

٨٧ اقتصر هاجسه العلمي في تلك الفترة على وضع الحروف الأولى من اسمه على الدراسة المخصصة ل«كانستيلهوريزو»

المنشورة في القاهرة والتي جمع مادتها جوسين وميريسيه وأعيد نشرها لاحقاً في المجلة الإنجيلية.

٨٨ مندوب المفوضية العليا لقب القنصل الفرنسي العام في الفترة الانتقالية حيث كان الحلفاء، يمارسون السلطة العسكرية في القدس.

٨٩ نص كتبه ب دروم في دفتر اليوميات الصغير. ١٣٣٠-١٣٣٩ هـ (١٩١٢-١٩١٦م). ص ١٠٥.

٩٠ «توفيل ديولا فامي» (أخبار العائلة)، العدد ٤٠٠، ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠/٣/٢٧م).

٩١ صور جده وبيع الوجه من قياس ١٢×٩ المفضل لدى سافينيان. وهو أيضاً قياس الصور الملصقة في إرواد.

٩٢ ورد في مقدمة كتاب «البعثة»، ص ١٤. أن معظم الصور المنشورة في المجلد قد التقطها سافينيان. ونحن نعتقد أن الصور

الملصقة بالقياس «الستيريو سكوبي» تعود إلى جوسين الذي كان يفضل هذا القياس.

جوسين في شبه الجزيرة العربية (١)

في نهاية سنوات العقد ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)، فُرِضَت الخدمة العسكرية الجديدة على طلبة الكهنوت، باستثناء الذين يدرسون في الخارج، وربما لهذا السبب اضطر الفتى جوسين إلى الذهاب إلى القدس وخوض مغامرته العلمية في المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي. هناك، وجد جوسين جواً تعديداً واسعاً في المجالين الثقافي والديني.

في تلك الحقبة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن الطابع العالمي للمدينة المقدسة موضع اعتراض من الحركة القومية العربية. ففي هذا المجتمع الشرقي المقدسي كان معظم الصراعات وأعنفها يدور فيما بين الطوائف المسيحية: إما بين الكاثوليك والأورثوذكس المتنازعين على إدارة الأماكن المقدسة، أو بين الأورثوذكس العرب والأورثوذكس اليونان من أجل السيطرة على البطريركية الأورثوذكسية. وكانت لغة النخبة الاجتماعية والثقافية آنذاك هي الفرنسية. لذلك استطاع المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس بسرعة، وعلى الرغم من تأسيسه المتأخر، أن يلعب دوراً ثقافياً فائق الأهمية.

قبل العام ١٢٢٦هـ (١٩٠٨م)، تاريخ وصول المماربين الصهيونيين المتشددين، كان المسلمون والمسيحيون واليهود على علاقة طيبة فيما بينهم، وكان أطفال الوجهاء من الطوائف الثلاثة يتلقون العلم في المدارس الفرنسية الحديثة ذاتها. وعلى ما يبدو، ينتمي جوسين إلى جيل فرنسي كان يلعب - فرنسا الشرق -، أي بتكوينه تجمع ثقافي ناطق بالفرنسية التي لا يمكن إهمال دورها كمعصر لاحم في نهضة الأدب العربي. لكن السبب الحقيقي لوجود جوسين في المدينة المقدسة كان، دون شك، المشاركة في دراسات الأنجيل.

في بداية هذا القرن، تعرض المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس إلى حملات قاسية شنتها ضده التيارات الأصولية في الكنيسة الكاثوليكية. ذلك أن مشروع المعهد القائم على قراءة الأنجيل عبر مقاربة تاريخية بدأ لهؤلاء، موقفاً خطراً يمكن أن يقود إلى الهرطقة الحداثية التي أدانها البابا في ذلك الوقت.

وبالفعل كان الراهب لاغرانج يتعرض بانتظام لحملات وشايات لدى السلطة البابوية.

وكان إخلاص المعهد المذهبي موضع تشكيك دائم من قبل هؤلاء الأصوليين. والواقع أن الاختيارات العلمية تدل على الشجاعة المعنوية والفكرية التي كان يتمتع بها الرهبان الدومينيكان في نشاطهم العلمي وجهودهم الاستشرافية التي تشهد كذلك على بسانتهم.

جوسين وسافينيكا في شبه الجزيرة العربية

كانت منهجية المعهد الإنجيلي الآثاري الفرنسي في القدس قائمة على معاودة دراسات فقه اللغة (الفيلولوجيا). لاستخدامها في تاريخ وتفسير النص الإنجيلي. وهي لم تكن تكفي بذلك، فالنص الديني كان يُشرَح ويوضح من خلال المكتشفات الأثرية وعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا). وكان ذلك يعتبر وقتئذ بدعة مقلقة.

هكذا أصبح الفلسطينيون بمختلف فئاتهم موضوع دراسات هدفها التوصل إلى فهم أعمق لواقعهم يعود بهم إلى حقبة تاريخية سبقتهم بثلاثة آلاف سنة. هذا مع أن فلسطيني اليوم يعيشون حياة تتسم بالحدأة في العديد من جوانبها. لذلك نقل جوسين وصديقه سافينيكا اهتمامهما إلى مناطق شرقي الأردن التي لا تزال تغلب عليها العادات البدائية الأصلية. وبفضل الفترة التي قضياها في دراسة طابع عرب البادية وتقاليدهم، شعر هذان الباحثان بتعاطف كبير معهم ومع طراز حياتهم.

قبل العام ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، قام جوسين وسافينيكا ببحوث أثرية من جهة، وإناسية من جهة أخرى، مما دفع بهما إلى التفاعل أكثر فاكتر في شبه الجزيرة العربية وصولاً إلى الحجاز. وكان التصوير الفوتوغرافي صلة الوصل بين حقلَي النشاط المعرفي هذين. ولم يكن الرجلان قد درسا هذين الاختصاصين بصورة أكاديمية. لذلك كان مساعهما توثيقاً بالدرجة الأولى. وكان لحرصهما على تجنب أية زعّة إغرابية (إكزوتيزم) الفضل في تركيزهما على دلالات المواقع والكانات.

وقد أثر هذا التوجه عن إرسال البعثة الأركيولوجية إلى شبه الجزيرة العربية عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م). وقد استخدم الرفيقان الشهيران في رحلاتهما العلمية قطار الخط الحديدي الحجازي الذي افتتح قبل فترة قصيرة. وفيما كان القطار يعبر بهما الصحراء، كانت أنظارهما تستجم بخيوط النور الهارب لثملهما مزيداً من الاهتمام

بالتصوير الفوتوغرافي باعتباره أكثر من مجرد توثيق لأبحاثهما^(١) :

المنظر أقرب إلى الرواية، لكن لهذه الرواية سحرها. ففي كثافة الضوء، تبدو لنا أدق ثنية في الأرض وأدعى متشعباً في تلك الوهاد حيث تتجمع مياه أمطار الشتاء، تنشب بعض النباتات والحشرات الضامرة. ويفضل السراب، نرى هذه الكائنات النادرة عن بعيد مغشوة بأشعة الشمس وأدعى خصباً تلؤه غابة كثيفة على ضفة بحيرة سحرية.

هكذا، من منصة التصوير، نستمتع بهذا الجمال الأخاذ بكل تفاصيله وتعداده أبصارنا الأعيب الضوء، الخادعة التي نستسلم لها بسهولة لا حد لها. أكيد أن هذا الوهم وهذا السراب كان يمكن أن يكون أقوى حيلة وأطول عمراً لو كنا، كالحنجاش والمكتشفين القدماي، نجتاز السهل على ظهور الجمال. ومع ذلك فإننا، بدورنا، كنا نرصد الدعاء، الذي طالما انطلق من كل الحناجر على ثوب الحج^(٢): اللهم انصر السلطان وأغل رايته، لكننا في الواقع كناً محظوظين ومدللين على متن قطار أسرع من الجمال...

اعتباراً من "الأخضر"، تابع جوسين وسافينيكا رحلتهم على الجمال إلى مدائن صالح حيث ألقيا مصاصب حجة في التعامل مع السكان البدو بسبب شكوك السلطات المحلية بنواياهما السياسية^(٣):

كان العرب الذين يتجرون على التحدث إلينا سرعان ما يتعرضون لغضب السلطات المحلية ويتم ترحيلهم بعنف. إلا أنهم تمكنوا من شريقي الأيمن من متابعة بحوثهم الأساسية دون عناء. من هذا الباب يدخل عودة أبو تايه عام ١٣٢٧م (١٩٠٩م) تاريخ الأدب الأوروبي للمرة الأولى، قبل أن يخلده لورانس في أعمدة الحكمة السبعة^(٤) :

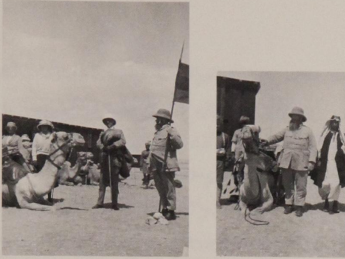
في أواخر سبتمبر، توجهت عشيرتنا "الصخور" و"الحويطات" نحو الشرق متغلغلين في الصحراء، وكل منهما ترافق حركات الأخرى. كان العداء بين العشيرتين مستتجلاً وسرعان ما أدى في مطلع شهر مارس إلى قتال دموي بينهما غير بعيد عن "الطريق"، حيث راحت "الصخور" تتلارد "الحويطات"، فما كان من عودة أبو تايه إلا أن نصب لها كميناً وأوقع بين صفوفها خسائر فادحة: مائة وأربعون قتيلاً بينهم أقارب الشيخ طلال (الذي نجا بجلده)، أما المنتصرون فقد غنموا خمسين حصاناً وخمياً باكمله

بالإضافة إلى نيف وثلاثمائة أسير من رجال ونساء وأطفال. لكن عودة أبو تايه أطلق سراح الأسرى وأمر نساء عشيرته بإرضاع الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم. وحين أطلق سراح النساء، الأسيرات حدث أمر مدهش، إذ كان في خيمة طلال رجيعة تخدم مولاهما ونساءً بإخلاص، وقد وقعت هذه المروءة في الأسر داخل الخيمة لكنها عندما أراد أبو تايه إطلاقها رفضت ذلك قائلة: "لقد خسرتي مولاي طلال بحدّ السيف، فإن أراد استعادتي، عليه أن يأتي ليحررني بحدّ السيف". وهكذا بقيت المرأة في خيام أبو تايه.

في العامين ١٣٢٧-١٣٢٨م (١٩٠٩ و ١٩١٠م)، تابع جوسين وسافينيكا رحلاتهما إلى الحجاز، لكن في ظروف جديدة. فقد لاحظا أن ثورة ضباط تركيا الفتاة عام ١٣٢٦م (١٩٠٨م) أدت إلى فقدان السلطة مبيتها في إدارة الخط الحديدي الحجازي^(٥) :

نشعر بأن رياح الحرية تهب على الإمبراطورية العثمانية، فالملكانيون في القطار يتشاجرون مع رئيسهم ومع رؤساء المحطات، وهم لا ينطلقون بالقطار إلا عندما يحلو لهم ذلك: كما أنهم كانوا شاهدين على مقاومة البدو للخط الحديدي الحجازي الذي فرض عليهم نظاماً سياسياً واقتصادياً معادياً^(٦). وكان بعض البدو يرتدون الملابس العسكرية ويطلقون إلى الخط الحديدي لتفكيك قطع من سكته، بحيث يتنقل القطار حين يصل إلى الموقع، لكن سائق القطار كان حين يقترب من المنطقة، مدركاً غياب الحراسة عنها، يخفف سرعته فيكتشف التخريب ويتراجع بالقطار، ثم ينزل منه الجنود ويطلقون النار على البدو المخربين الذين سرعان ما يولّون بالفرار.

تعهد البدو بعدم التعرض للخط الحديدي حتى منتصف شهر مايو، بحيث يتسكن الحجاج من العودة إلى بلادهم، لكنهم أنذروا بانته سيوقعون القطارات بعد ذلك التاريخ. وبالفعل، فعلوا ما وعدوا به في اليوم المحدد، فالتفتوا عدداً من قضبان السكة وحملوها بعيداً إلى الجبال. ويقال إن الحكومة عادت فالتقت معهم على منجم تسعسانة ليرة عثمانية مقابل تعهد شيوخهم بترك القطارات تسير بسلام خلال شهرين ونصف الشهر. لكن البدو عادوا بعد يومين واقتلعوا قضيبين من حديد السكة، فتفرق المشيوخ بأن الفاعلين لم يكونوا بدء على علم بالاتفاق وتعهدوا من جديد بمنع وقوع أية جنح من هذا النوع في المستقبل. والحال اليوم ثابتة عند هذه النقطة ويبدو أن حاكم المدينة



حوالي ١٣٣٦هـ (١٩١٨م). جوسين في مهمة مع ضباط بريطانيين بحرسهم جنود من «الفيلق الهندي». خلق الصورة مخوفة

جوسين أثناء الحرب الكبرى

بسبب سنه، لم يُجنّد جوسين في عام ١٣٢٢هـ (أغسطس ١٩١٤م). كان يرى رجال الدين الفرنسيين الشبان يذهبون إلى الحرب تملأ قلوبهم مشاعر الحماسة والوطنية. ثم يتابع أخبار زملاء آخرين سيذهبون إلى «أورفة» في الأناضول قبل طردهم نهائياً من فلسطين، شاهدن في ذلك شأن كل مواطني البلدان المشاركة في الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية.

هاهو الآن في مصر يلتحق بسلاح بالمخابرات. يبدأ عمله كمخبر للبريطانيين في «المكتب العربي» الجاري تكوينه، حيث سيلتقي زملاءه باحثي الآثار، خاصة ليونارد وولي ولورانس الذين وصلوا مصر قبله بثلاثة أسابيع. ولا شك في أن لجوء كل من المخابرات الفرنسية والبريطانية إلى باحثي الآثار يدل على مدى الإرتجال في بناء نظام الاستخبارات لدى الحلفاء. لاتوفر أية وثائق تشير إلى اللقاء بين جوسين ولورانس (١٠). لكن هذا اللقاء أصبح ممكناً منذ تلك اللحظة. في ذلك الوقت، كانت البعثة الأثولوجية إلى شبه الجزيرة العربية الجهة التي قدمت أفضل وصف وأحدث لمنطقة طالما استهدفها بالخصوص اهتمامات باحثي الآثار البريطانيين الشبان الذين تحولوا عشية الحرب إلى ضباط مخابرات.

المنورة قد طلب تزويده بثلاثين ألف جندي وأنه حصل على ما أراد، إذ إننا «كما نشاهد دائماً كثيراً من الجنود على الطرق إلى الجنوب».

في عام ١٣٢٨هـ (ديسمبر ١٩١٠م)، تقاضت الاضطرابات التي يثيرها البدو وامتدت إلى شرقي الأردن، فكانت «قوة الكرك» التي مهدت لقيام «الثورة العربية» لاحقاً (١١). كان جوسين يتلقى الأخبار المفصلة من عملائه في المنطقة وينقلها إلى قنصل فرنسا في القدس الذي يتولى بدوره إرسالها إلى باريس (١٢).

يرى جوسين أن التمرد، وإن كانت انطلاقته بدأت في المناطق الدرزية، شمل بدو الصحراء، بسبب «إحصاء السكان» الذي يرفضونه بحدة. وأكد أن لهذا التمرد بعد قومي أساسي مناهض للاثراك. وقد أكدت لنا هذا الرأي البرقية التي تلقيناها من «مادبا» والتي نقلت لمساعدكم مضمونها هذا الصباح : خلافاً لأخبار السابقة، لا تبدو حياة المسيحيين في «الكرك» مهددة. صحيح أن بيوتهم تعرضت للنهب، لكن فرسان البادية تزكهم يهرون. بالمقابل، يبدو أن الحاكم وقائد الحامية العسكرية ومعظم الموظفين قد ذهبوا مع عائلاتهم.

من جهة أخرى، فإن المشاعر القومية الطامحة إلى إقامة إمبراطورية عربية متوحدة بالحدة ذاتها في مناطق الشمال مثل قضاء نابلس، وفي الجنوب بمنطقة «الخليل» وما وراها حيث ينتشر التعصب الديني أيضاً هنا. الجميع يكرهون الاثراك الذين يضطهدونهم منذ مدة طويلة جداً، ومن المؤكد أن مبعوثي البدو المتزودين على الاثراك سوف يلقون إذا ما صاغية لدى معظم القبائل في حال تعرض العشائيين لهزيمة كبيرة.

طوال السنوات التي سبقت الحرب، تجول جوسين وسافريانيك في المناطق التي لن تلبث أن تحملها رياح «الثورة العربية». وهو نشاط لم يقم لورانس بمثلته. ولأنك في أن الرجلين تعرفا بشكل مباشر على بعض الناشطين في قيادة هذه «الثورة». وقد استفادا من مقاربتهم الإثنولوجية لواقع الشرق الأدنى في تجنب التعامل الاستشراقي التقليدي مع شؤونهم. كما أن هذه المقاربة زودتهما بوعي كاف لإدراك عمق الشعور القومي العربي وإمكان إقامة صلات بين المفكرين في المدن والبدو في الصحراء.

كان الحضور العسكري الفرنسي في مصر قوياً، لكنه لم يتميز بعدد الجنود المتقدمين بقدر ما تميز بالاشتراك مع البريطانيين في محاصرة السواحل العثمانية على البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. وخلال فترة قصيرة من الزمن تعاون جوسين مع المخابرات البريطانية، لكن المخابرات الفرنسية سرعان ما استعادت وضعتهم إلى جهاز الاستخبارات البحري الفرنسي في الشوق (١١) الذي كان قد أسس حديثاً. تولى جوسين ومعه سافينيكاك (لاحقاً) تنظيم نقل العملاء البريطانيين والفرنسيين المكلفين بالتسلل خلف الخطوط العثمانية على سفن فرنسية.

وكان هذا التعاون بين الجهازين ضرورياً. فالفرنسيون كانوا يملكون قاعدتين بحريتين متقدمتين في جزيرتين قريبتين من الساحل العثماني هما درواد، قبالة الشواطئ السورية، وكاسيتورزيو على الضفاف الأناضولية. مع ذلك فإن التنافس السياسي بين الدولتين حول مستقبل سورية كان يثير من وقت لآخر توتراً في العلاقات بينهما، وكان كل فريق يتهم الآخر بتدبير المكائد له في ما يتعلق بالشؤون السورية والعربية.

صحيح أن مساهمة جوسين في تحرير تقارير الاستخبارات كان أساسياً، لكننا لم نجد وثائق تحمل توقيعيه إلا اعتباراً من عام ١٣٢٢هـ (ديسمبر ١٩١٥م)، (١٢) خلال تلك الحقبة الأولى، كانت المعلومات تتغلغل أساساً بالمجال العسكري ويتطور معنويات السكان وأوضاعهم الاقتصادية (أسعار المواد الغذائية الأساسية). أما المخبرون فكانوا عادة إما سجناء، فارين أو مجندين هاربين من الجيش أو عملاء، ومنسذين أو عرباً مناصرين للحلفاء. وكان هؤلاء الأشخاص عادة من المؤيدين لوصاية فرنسا على المنطقة، بينما كان مخبرو الإنكليز يؤيدون الوصاية البريطانية ... من الطبيعي إذاً أن يلعب جوسين دور المؤرخ اليومي للثورة العربية التي أطلقها الحسين، شريف مكة. ومنذ ١٣٢٤هـ (يوليو ١٩١٦م)، أصبحت التقارير التي تحمل توقيعيه مصدر معلومات لا مثيل له (١٣):

تتسم كل الدوافع التي أوردتها الشريف حسين بطابع قومي وديني. فهو يتجاهل عاصداً كل ما يتضمن من قريب أو بعيد إشارة إلى المصالح السياسية الأجنبية، وبالأخص البريطانية. بوسعنا أن نعمل بسرعة ونحفظ أقل وأن نعرض شبه الجزيرة العربية كلها

ضد الأتراك لنضع في مواجهةهم قوة عسكرية قادرة على إعاقتهم وكسر هيبتهم في العالم الإسلامي عبر خلق منافس لخليفة الأسنانه. بذلك نعمل في إفلاس دعوة الجهاد المقدس التي صدرت عن شيخ الإسلام بتحريض من القصر. هذا هو ما يبدو هدف حلفائنا في سياستهم المتعلقة بالحجاز. لقد أدى النفوذ الإنكليزي والمطامع العربية إلى انتفاضة الأمير حسين، بقي أن نعرف ما إذا كانت هذه الانتفاضة ستشكل بالنجاح.

كسائر المراقبين الأجانب، لاحظ جوسين الطابع المغامر والساذج المميز لهذه الثورة. إذ أنها كانت معرضة للانهايار بمجرد هجوم ناجح واحد في الحجاز. لذلك دعا جوسين إلى إرسال فيالق من المسلمين الفرنسيين والبريطانيين لدعم الشريف حسين، وخاصة لحماية الخط الحديدي الحجازي، ذلك العصب الحساس للمنطقة:

إلى جانب هذا الدعم المباشر والإيجابي، فإن من الهام جداً أن يحول الحلفاء بجميع الوسائل دون وصول الإمدادات التركية إلى شبه الجزيرة، أو على الأقل تأخير هذا الوصول. كذلك فإن من الضروري التعرض لتأمين القوات العثمانية الموجودة في المنطقة من قبل. وهذا يستدعي قطع الخط الحديدي شمالي مدائن صالح.

من المؤكد أن جوسين كان، من بين سائر الخبراء الفرنسيين والبريطانيين في مصر، الوحيد العالم بتفاصيل وضع الخط الحديدي المذكور. إذ كان بوسعه في أية لحظة إعداد لائحة بالمواقع المتوجب مهاجمتها لتعطيل الخط، بالإضافة إلى الأسلوب الأفضل للقيام بهذه المهمة:

إن نصف النطق مع جسر واحد أو اثنين يمكن أن يخلق أضراراً بالغة بالخط الحديدي الحجازي ويعيق تشغيله خلال فترة زمنية تمثل كسباً هاماً للوقت بالنسبة إلى الحلفاء. ولا شك في أن عملية كهذه ستلاقي صعوبات حقيقية، لكنها تبقى مع ذلك ممكنة، وتكفي للقيام بها فرقة من ثلاثين أو أربعين رجلاً ينطلقون من منطقة "الدباح" ليصلوا خلال يومين أو ثلاثة إلى المواقع المحددة لهم، ويؤدون مهمتهم ليلاً، ثم ينسحبون سريعاً باتجاه الساحل. بطبيعة الحال يجب أن تدرس هذه الفكرة بدقة وأن يتم الإعداد لها بعناية وأن تتخذ بالتعاون مع عرب "أبو تقيقة" أو "العطاونة" الذين يعرفون مسارب

الحوارج بين الحضارة الغربية وحياة الصحراء في شبه الجزيرة.

في تقرير اعده جوسين بمناسبة انتهاء مهمته، ركّز على رغبة الشريف حسين وابنائهم بالتوجه شمالاً لوضع يدهم على سورية، خاصة وأن الخطر العثماني أصبح ضعيفاً. وقد اعتمد البود حرب العصابات مركزين هجماتهما على الخط الحديدي الحجازي. بذلك نجحوا في إرغام العدو على تشتيت قواته على امتداد سبعمائة أو ثمانمائة كيلومتر من السكك الحديدية. ويرسم جوسين صورةً كتابية لابناء الشريف حسين (١١)، ملاحظاً ضعف صحة اكبرهم، الأمير علي، الذي لن يبقى في الحلبة طويلاً، بسبب اعتلال صحته، أما عبد الله، فإنه، على رأي الراهب الدومينيكاني، "يحمل بعودة الخلافة العربية وإقامة إمبراطورية عربية إسلامية عاصمتها دمشق ومداها كل اقاليم الإمبراطورية التركية الناطقة باللغة العربية" (١٢).

الأمير فيصل، كما يصوره جوسين، "ذكي ومتفقد ومحارب شجاع في أن واحد، وهو أسهل تأثرًا بالنفوذ الأجنبي من شقيقه عبد الله، خاصة وأن الإنكليز اشتغلوا عليه طويلاً وأقاموا معه صلات مستمرة بفضل قرب مقر إقامته من البحر. وهو محاط على الدوام بالكولونيل نيكوبوم والكابتن لورانس الذي يلعب لديه دور المستشار والمرشد". وتنتهي دراسة جوسين بعدة ملاحظات حول حكومة الشريف حسين والشخصيات الأساسية فيها.

بعد عودته إلى مصر، أعد جوسين، بالتعاون مع سافينيكان، دراسة شاملة عن سكان فلسطين بمناسبة دخول القوات البريطانية هذه المنطقة (معركة غزة) (١٣). بقي جوسين المراقب البقيظ لنتائج "الثورة العربية". تقريره المؤرخ بسنة ١٣٣٥هـ (١٢ أغسطس ١٩١٧م)، اعتبر على درجة من الأهمية تبرير إرساله إلى وزارة الخارجية في باريس (١٤)، وهو يحدد في هذا التقرير نتائج احتلال العقبة واستقرار فيصل ولورانس في شرقي الأردن. وفي التقرير دلائل على أن جوسين ناقش هذا الموضوع مع لورانس نفسه: "شعة زعما، مثل عودة أبوه وإيه وسليمان بن صخر يقولون بجرة اليوم: إننا لا نريد أن نرى في العقبة جنوداً إنكليزاً أو فرنسيين أو مصريين. نحن ضد الأتراك، لكننا نريد أن نبقى

الجبال، مما سيمكنهم من أداء دور الدليل والمساعد. إن من الممكن بسهولة أن نحصل على معونتهم لأن هذه العشائر التي يرغبها الأتراك على مساندتهم، تنصر لهم كراهية مطلقة. كذلك اقترح جوسين القيام بعملية في شرقي الأردن لعزل الحامية التركية في المدينة المنورة ودفعها بالتالي إلى الانشقاق بثورة القبائل العربية في الجنوب وفي كامل المناطق الشمالية، من معان حتى أنطاكية وحلب.

ولتنفيذ هذه العملية، قدّم جوسين لائحة بالقبائل العربية التي يمكن أن تساهم بهذه المغامرة. من الواضح أن هذه الملاحظة المدونة في ١٣٣٤هـ (يوليو ١٩١٦م) تمثل تمهيداً للخطّة التي سينفذها لورانس في العام التالي. ونحن لا نعلم إذا كان لورانس قد عرف بهذه الخطّة أم لا. إذ أن قيادة الأركان البريطانية كانت قد فكرت خلال صيف ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، بإبازل جنود في العقبة للقيام بعملية في شرقي الأردن. وباعتبار لورانس خبيراً بشؤون المنطقة فإنه، وقد ضدّ هذا المشروع مؤكداً أن تضاريس المنطقة تجعل مستحيلاً نجاح مثل هذا الإنزال (١٥). وفي الأشهر التالية، اقترح الكولونيل بريمون، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية، بإصرار القيام بإبزال فرنسي بريطاني مشترك في العقبة. كان الفريقان قنّعتين بالأهمية الإستراتيجية لهذا الموقع، لكن لورانس الذي كان يصدّد تحويل "الثورة العربية" إلى مشروع شخصي له، قرر استبعاد أية مشاركة فرنسية في عمليات شرقي الأردن. سنة ١٣٣٥هـ (بين ١٤ فبراير و ٦ مارس ١٩١٧م)، زار جوسين الحجاز (١٦) لمعاينة الوضع هناك. وزار على وجه الخصوص محلة الوجه يوم ٢ مارس، حيث كان الملك فيصل ولورانس من المؤكّد أن جوسين التقى الرجلين. إذ أنه سجل مدى التأثير البريطاني على نجل الشريف حسين:

في الوجه، يعيش الكابتن الإنكليزي لورانس علاقات حميمة مع فيصل، نجل شريف مكة، الذي يبدو شديد الحرص على صداقته. ويارس لورانس نقوداً حقيقياً على هذا الأمير، كما أنه على تام بالمشكلات العربية. لكنه يبدو لي كادياً حين يتظاهر بتأييد الرّفض الذي يبديه فيصل وانصاره للتدخل الأجنبي في شبه الجزيرة العربية. واعتقد أن من الأفضل سياسياً وعملياً للحلفاء، أن يعملوا على تخفيف هذه الكراهية الغريزية التي يكتفها البدوي لكل من لا ينتمي إلى عرقه أو عشيرته، وأن يساهموا بذلك في كسر

عرباً والتمتع باستقلالنا المنطق. وإذا دخل الجنود الأجانب بلادنا، فإننا سنطلق عليهم النار.

هذه العبارات تبدو مغالية، حتى يراي الكاتبين لورانس الذي شرح مشاريعه لجوسين :

الكاتبين لورانس ليس يأساً من إمكان تنفيذ خطته : إثارة التمرد على الأتراك في صفوف كافة القبائل وجعلها تتحلق بالشريف حسين، ثم تدمير الخط الحديدي الحجازي لقطع التنوير عن القوات العشائرية بين معان والمدينة المنورة بحيث يفرض الجوع على الأتراك أن يستسلموا.

وبالفعل قطع هذا الضابط الإنكليزي المسيطر على المنطقة طريق السلط - أريحا عند جسر الأردن وحاول تدمير جسور السكة الحديدية جنوبي طبريا. لقد سبق لهذا العقل المدبر الذي صمم هذه المشاريع أن أثبت كفايته وحزمه.

ويلاحظ جوسين ببصيرته النافذة أن لورانس منع الثورة العربية عن القيام بأية مبادرة في فلسطين ورفض مشاركة أية عناصر فلسطينية فيها. كان هدفه الوصول إلى دمشق متجاهلاً فلسطين.

من الواضح أن مشاريع لورانس كانت تخلق الراهب الدومينيكاني، ففي عام ١٩٣٥هـ (الثامن من أكتوبر ١٩١٧م) أرسل إلى السلطات الفرنسية مذكرة حول سورية (١٠) سبقت بعاميين مذكرة لورانس عن الموضوع ذاته (١١). في هذه المذكرة، يصّر جوسين على تبعية فلسطين لسورية، ويقدم إحصاء للسكان حسب توزيعهم الطائفي، ثم يستعيد تاريخ الحركة العربية في المنطقة :

إنطلقت الحركة من الحجاز مستهدفة سورية التي عرض عليها قبول فيصل ابن الحسين أميراً كخطوة أولى نحو تحقيق أهدافها. ولم يتردد السوريون، فبناءً الشريف حسين أقرب إلى وجهاء المدن منهم إلى شيوخ البادية كما أن أحدًا لا يجهل الدور الذي لعبه السوريون في تأليف حكومة الشريف حسين في مكة. إن ما تريده غالبية السوريون المسلمين وأوسعهم نفوذاً هو استقلال سورية الناجز تحت حكم أمير مسلم عربي. وهم لم يحدوا بعد صيغة الحكم الذي يريدون، كما أنهم يحتاجون لبلوغ هدفهم في طرد الأتراك إلى معونة دولة أجنبية كفرنسا أو إنكلترة أو الأتنتين معاً، ويبدو أنهم

يفضلون إنكلترة. تلك هي ثمار السياسة البريطانية في مصر والحجاز وبلاد ما بين النهرين حيث ينشط عملاء عديدين للإنكلتري في الصحافة العربية وينفقون دون حساب لكسب ولا أصحاب النفوذ في العالم المسلم العربي.

على الرغم من ذلك، فإن جوسين لم يكن يأساً من الحفاظ على النفوذ الفرنسي في هذه المنطقة من خلال النشاط التعليمي والتربوي الكبير الذي تبذله فرنسا فيها. لكن هذا الميشر بكيان سوري تحت النفوذ الفرنسي كان على علاقة متريدة مع السوريين المهاجرين إلى مصر (الشوام).

ففي سنة ١٩٣٤هـ (أغسطس ١٩١٦م)، اشتكى المترجمون السوريون العاملون تحت إمرة للسلطات الفرنسية من تعامله السلطوي القاسي معهم (١٢). وبين عامي ١٩٣٥- ١٩٣٦هـ (أكتوبر ١٩١٧م)، وصلت إلى السلطات شكوى جديدة ضده، فابعد عن وظيفته (١٣). كانت التهمة الموجهة إليه هذه المرة هي السعي ليصبح ممثلاً للسياسة الفرنسية في سورية. ومن المؤكد أن بعض شخصيات وزارة الخارجية لم تكن تضمحل له كثيراً من الود والتقدير (١٤).

بالمقابل، فإن المسؤولين الفرنسيين في القاهرة من مدنيين وعسكريين كانوا يدافعون بحماسة عن هذا الموظف القدير. وعلى الرغم من الأزمة وأصل جوسين نشاطه، ففي سنة ١٩٣٦هـ (١٥ نوفمبر ١٩١٧م)، عرض جوسين ردود فعل المصريين على وعد "بلفور" الذي صدر كل ذلك بخمسة أيام :

لقد صدم السوريون المقيمين في مصر من مسلمين ومسيحيين بإعلان وعد بلفور وبالطغرات الإسرائيلية في بعض الأوساط المسلمة سبغ نقد مريب على الإنكلتريين الذين برغبتهم إقامة دولة اليهود يخدمون المسلمين من أرضهم ليعطوها إلى الغرباء. كذلك ظهرت الاحتجاجات ذاتها في أوساط المسيحيين السوريين الذين أوصلوا هذه الاحتجاجات إلى الحكومات الأوروبية. فقد استقرت فكرة إعادة بناء المملكة اليهودية في سورية بكل النتائج المترتبة على ذلك، على الأصعدة الدينية والاجتماعية والاقتصادية. أما عالم البداة، فإنه لم يصدق هذا الخبر : مملكة يهودية في فلسطين؟... هيكل داود فوق مسجد عر؟ ...

جوسين في القدس

في ١٣٢٦هـ (يوليو ١٩١٨م)، حضر جوسين حفل وضع حجر الأساس للجامعة العبرية في القدس (٢٠). وفي سبتمبر (٢١)، تناول بالعرض محاولة الصهاينة شراء، حائط المبكى والغضب الذي أثارته هذه المحاولة في صفوف المسلمين المقدسين. وبعد توقف العمليات العسكرية، عرض جوسين مخاوف وجهاء القدس بشأن الإعلان الفرنسي البريطاني الذي اعترف بحق سكان سورية في اختيار حكومتهم (٢٢) :

لقد تسألوا: هل القدس جزء من سورية؟ يبدو أن الحاكم العسكري أجابه فيما بعد بالإيجاب. وتبع ذلك نقاش كبير بين هؤلاء الوجهاء. قال أحدهم يجب أن نطلب إلى حكومة الشريف حسين إرسال فيصل إلى القدس. واكد آخر: يجب أولاً أن نفرض على البريطانيين الاعتراف بعروبة فلسطين، ثم نفكر بعد ذلك بشكل الحكومة. في حين قال ثالث: كان حرياً بنا أن نضع الحكومات الأوروبية أمام الأمر الواقع.

ينفرد تقرير جوسين الخاص الذي أعده في عام ١٣٢٧هـ (ديسمبر ١٩١٨م)، بتضمنه كثيراً من التفاصيل المتعلقة بشؤون القدس، وهو يخلص إلى أن الوضع أصبح على وشك الانفجار (٢٣) :

مقابل هذا الإحباط، ما من عائل إلا ونعت بالتهور سياسة استقرا المسلمين في قضية أساسية عندهم كهذه ووجدهم الجاهلون بعقلية الشرقيين وأمورهم يمكن أن يتصرفوا بالغيا، الذي اتسم به سلوك الإنكليز في القدس. فالقدس هي الحرم الثالث في الإسلام، والمسلمون لن يتخلوا مهما حصل عن مسجد عمر ولا عن حرمه الشريف. إن مجرد التثمين إلى احتمال حرمان العالم الإسلامي من بيت المقدس، مهما كانت الزريعة، يدفع بالمسلمين إلى الانخراط في القومية العربية ضد الغرب. هذا يحدث في الوقت الذي بدأت فيه القومية العربية تتبلور وأخذت الشعوب العربية، تصفي إلى دعوات الوحدة العربية والاستقلال المطلق، ويؤزر فيه الشريف حسين أوروبا للتبشير بهذه الدعوات الخطرة على مستعمراتها في الجزائر والمغرب. إنه يحدث في الوقت الذي أعلنت فيه مصر استقلالها التام لتدخل في فلك هذه الحركة العربية في هذا الوقت الذي بلغت فيه نفسية المسلمين نزوة إحباطها في القدس بشأن قضية فلسطين... في الحقيقة، إن هذا الموقف ليس إلا لعبة بالانار. كان يتوجب أن يقدم الإنكليز إيضاحاً

في عام ١٣٢٦هـ (يناير ١٩١٨م)، نقل جوسين إلى القدس المحتلة من البريطانيين. كانت مهمته الجديدة أن يؤسس فرعاً لجهاز الاستخبارات الفرنسية بالتعاون مع زملائه. كان لا يزال تابعاً لسلح البحرية، لكن نشاطه كان على صلة بهم. بعبء يكون المكلف بتبثيل المصالح السياسية لفرنسا في فلسطين وفي سورية. لاحقاً، جرى استبدال بيكو بالجنرال "غورو". إن معظم الوثائق المنسوبة إليه تغطي في الواقع العام ١٣٢٧هـ (١٩١٨م) وبداية ١٣٢٨هـ (١٩١٩م). وهي تمثل مصدراً أساسياً للمعلومات المتعلقة بالعمليات العسكرية في فلسطين وبالوضع في شرقي الأردن، وبصفة خاصة بتطور فلسطين السياسي وبداية المجابهة السياسية بين الصهاينة والعرب. هذا بالإضافة إلى وثائق استجواب الأرمن الناجين من مذابح ١٣٢٣هـ (١٩١٥م) الرومية.

فيما يتعلق بالثورة العربية، نلاحظ أن لهجة جوسين أصبحت أكثر تشنجاً، فهو يتحدث عن جنون العظمة لدى فيصل الذي «تداعب مخيلة فكرة إنشاء إمبراطورية واسعة تشمل العالم الإسلامي من الخليج الفارسي حتى المغرب» (٢٤). وفي ١٣٢٦هـ (١٥ يونيو ١٩١٨م)، قدم جوسين صورة مكثفة عن تطور الحالة الذهنية في القدس (٢٥) :

إستاء عرب فلسطين كثيراً من الاستقبال الإنكليزي الحار للمندوبين الصهاينة. وقد ظهرت معالم هذا الاستياء، بوضوح لأن الأهالي اعتبروا هذا الاستقبال خدشاً لكرامتهم أكثر من كونه مساساً بمصالحهم الاقتصادية. وبوسعنا مقارنة حالتهم النفسية هذه بحالة رب المنزل الذي يعامله ضيفه كخدخل.

بل يذهب جوسين أبعد من ذلك :

إلا أننا سنكون مخطئين إذا رأينا في العدا الذي يبديه عرب فلسطين تجاه الصهاينة مجرد شعور بالغيرة أو مجرد كبرياء جريحة. فالعرب وخاصة منهم الشباب المتعلمون أصبحوا يعون حقوقهم كامة متميزة. وهذه النقطة جديرة بالاهتمام. إن الصهيونية يمكن أن تصبح العامل الموحد بين المجتمعات العربية في فلسطين.

بانتداب فرنسي يفرض فكرة «الوطن القومي اليهودي». إلا أننا لم نعتز في المحفوظات الفرنسية المتعلّقة بتلك الحقبة على أي أثر يشير إلى هذا الموضوع لكن الجنرال غورو قدم في العام التالي بعض المال للمجموعات العربية في فلسطين.

حصل ذلك في وقت لم يعد فيه لجوسين أي دور سياسي هناك. ففي ١٢٣٧هـ (أبريل ١٩١٩م)، كانت تقارير الاستخبارات الصادرة من القدس توقع بحروف XXX نياية عن جوسين ولم يعد اسم هذا الأخير يظهر في المراسلات الرسمية.

بعد بضعة أشهر تم حل جهاز مخابرات البحرية الفرنسية في الشرق وسلّمت مهامه إلى جهاز مخابرات القوات البرية، وأوكلت شؤون فلسطين إلى مكتب الاتصال الفرنسي في القدس. ولم يعد اسم جوسين يذكر مطلقاً في المراسلات بين المكتب المذكور وجهاز الاستخبارات.

من المؤكد أن جوسين عاد منذ ١٢٣٧هـ (١٩١٩م) إلى نشاطه العلمي والديني، حيث استكمل مع سافينيك الطبعة النهائية من كتابهما البعثة الآتارية إلى شبه الجزيرة العربية، ثم قام بدراسته الانتوغرافية الأخيرة المخصصة لنابلس وسكانها.

في أواخر العشرينيات غادر جوسين القدس إلى القاهرة، وبحله كف دير الرهبان الدومينيكان عن القيام بآية بحوث أثرية، ملقناً إلى الدراسات الإسلامية. ويبدو أن جوسين كرّس حياته اعتباراً من ذلك الوقت لفروضه الدينية ولمهامه الإدارية.

إن عمل جوسين السياسي لا يتفصل عن ظروف الحرب العالمية الأولى فقد انخرط في سلاح المخابرات بدوافع وطنية، وأتاح له خبرته المكتسبة قبل الحرب أن يدرك على الفور الطاقة الكامنة في الحركة القومية العربية. وهو على الرغم من حذره تجاه نوايا البريطانيين كونهم في البداية صورة إيجابية، لكنه اعتباراً من العام ١٢٣٧هـ (١٩١٨م) بدا يظهر تذرعه وقلقه على مستقبل موقع فرنسا الثقافي في المنطقة. كان يرى في فيصل مجرد صنعية للإنكليز وخاصة للكابتن لورانس.

لا شك في أنه التقى هذا الأخير مراراً وأصبح في لحظة ما مفسر أفكاره وشارحها. بعد ذلك توجه اهتمامه إلى العرب الفلسطينيين، مما أثار حفيظة الإنكليز. ويبدو أن

صريحاً للمسلمين وأن يتخذ الحلأ إجراءات فعالة تحسباً لكل الاحتمالات.

بعد ذلك، أرسل جوسين بعض البقيات خلال عام ١٢٣٧هـ (الأشهر الأولى من عام ١٩١٩م). لكن وصيته الحقيقية تعود إلى ١٢٣٧هـ (٢٧ ديسمبر ١٩١٨م) (٣١)، حيث يؤكد على الشخصية التاريخية لسورية عبر القرون. وهو يوظف هذه الحقيقة في خدمة رفضه مشروع «الإمبراطورية العربية» الطامحة إلى الامتداد حتى المغرب. وهو لا يرى في هذا المشروع إلا الوجه الخفي لمطامع البريطانيين في سورية على حساب النفوذ الفرنسي.

كل شيء ولا اندلاع حرب بشعة جديدة. إن الشرف يستدعي من الإنكليز أن يعلنوا للمغرب موقفهم بصراحة. وأن يعيدوا هذا المارد الذي أطلقه الكولونيل لورانس إلى قتمقه قبل أن يصبح خطراً يهدد أمن العالم. وسوف يكون السلام والأمنان اكمل لو أن سكة حديد مصر تمر بالعقبة وفلسطين التي هي جزء من سورية الباقية تحت النفوذ الفرنسي.

وأضح أن جوسين خصم لدود للصهيونية. ومن الصعب معرفة ما إذا كان قد اكتفى بدوره كمرآة للأحداث في فلسطين أو أنه دخل في مغامرة عمل سياسي مع عرب فلسطين. ولم يكن محاوروه العرب يجهلون انتماءه إلى جهاز المخابرات الفرنسية، لذا فإن من المحتمل أن تكون بعض «الأسرار» التي باحوا له بها رسائل يشرحون فيها للسلطات الفرنسية وجهة نظرهم بشأن مستقبل فلسطين.

في باريس كان «لغرانج» المسؤول كهنوتياً عن جوسين، أحد الناشطين في جمعية «أصدقاء الأرض المقدسة»، وهي أول جمعية فرنسية معادية للصهيونية وتضم كاثوليكين قلائع على مستقبل الحضور الفرنسي في الأرض المقدسة إلى جانب إسرائيليين ليبراليين قريبين من تيار التحالف اليهودي العالمي الراض لفكرة «الأمة اليهودية».

في تقرير للمخابرات البريطانية حرر في ١٢٣٧هـ (٢ فبراير ١٩١٩م) (٣١)، اتهم لأغرانج بتحويل منظمات سياسية عربية معادية للصهيونية ويدعوة عرب فلسطين إلى المطالبة

وإذا كان جوسين قد ورط نفسه نفسه حتى العقب في قضايا الشرق الأدنى فذلك يعود إلى المحنة التي كان يعانيها بلده. لقد شارك جوسين في صنع التاريخ بمحض الصدفة، فهو لم يكن يفكر يوماً بأن يصبح بطلاً، ولا دخل يوماً أجواء أحلام اليقظة التي تحدث عنها لورانس في مقدمة أعمدة الحكمة السبعة. لكنه، عبر نصوصه وصوره الفوتوغرافية ربما أعطانا صورة أدق وأكثر جلاءً.

هنري لورانس
أستاذ جامعي في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية
«تاريخ العالم العربي المعاصر»

الدفاع عن الفلسطينيين كان القاسم المشترك بين كل الممثلين الفرنسيين في الشرق الأدنى بعد انتهاء الحرب، سواء كانوا أعضاء في «بعثة بيكر» أو ملحقين بمكتب الجنرال غورو.

بطبيعة الحال، يمكن أن نتساءل عما إذا كان هذا الموقف تعبيراً عن الرغبة في مضايقة الإنجليز الذين طالما زاحمو الفرنسيين على مواقعهم في سورية، أو كان تعبيراً عن أمل في استعادة المواقع الفرنسية في فلسطين نفسها. لكن الإنذارات المتكررة التي وجهتها الحكومة الفرنسية إلى قريبتها البريطانية عام ١٩٢٩م (١٩٢٠م) بعد إنجاز تقسيم الشرق الأدنى تؤكد على إخلاص فرنسا في قناعتها بأن فلسطين قد تصبح مصدراً دائماً للاضطرابات والعنف في المنطقة.

- (١) أشكر فاسان كورتيك لمرامعة هذا النص ولما لاحظته القيد عليه. كما أشكره لتزويدي ببعض المراجع المتعلقة بالآرشفيف.
- (٢) والسبب إلى السبائك العام، أحيل القارئ على كتابه «النساء السورية» الصادر عام ١٩١٩م (١٩٩٨م) عن المركز الوطني للبحث العلمي بباريس وعلى كتابي «القضية الفلسطينية: اختراع الأرض المقدسة» الصادر عام ١٩٢٠م (١٩٩٨م) عن دار «فايار» بباريس. كلاهما بالفارسية.
- (٣) «البعثة الأثرية إلى الجزيرة العربية»، القاهرة ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).
- (٤) ص ٤٩-٥٠.
- (٥) طريق الحج.
- (٦) المصدر السابق ١، ص ٤١٢.
- (٧) المصدر السابق ١، ص ٤٩٩.
- (٨) المصدر السابق ٢، ص ٤.
- (٩) المصدر السابق ٢، ص ١٦.
- (١٠) انظر لورانس، «تعلق على ثورة مغلطة مسبقاً - ثورة العرب في الكرك»، ١٩٢٨م (ديسمبر ١٩١٠م)، مجلة الدراسات الفلسطينية.
- (١١) ص ٨ (٧٨-٧٩) والعدد ١٠ (ص ٩٦-٩٧) بالفارسية.
- (١٢) ١٩٢٨م (١٩١١/١٢/١١)، وزارة الخارجية الفرنسية، تركيا وسورية ولبنان.
- (١٣) بالمقابل، ثمة إشارات عديدة إلى لغات بات سانيانكي وديلي.
- (١٤) في الآرشفيف ورد اسمه (أو بأغضاره محققاً بدائرة الاستخبارات) للمرة الثالثة.

- (١٢) حسب المخطوطات التي تم جردها حتى اليوم.
- (١٣) آرشفيف البحرية، مخطوطة عن ثورة الشريف حسين.
- (١٤) جوسين «وليسون» «لورانس العرب»، منشورات «ديفيل»، باريس ١٩٩٤، ص ٢٠٠.
- (١٥) يوجد بلغ مقلته في الحجاز في وزارة الخارجية حرب ١٩٣٢-١٩٣٦م (١٩١٤-١٩١٨م)، ص ٢٠٣.
- (١٦) رسائل سرية من الجزيرة العربية، ملاحظات شخصية حول أسرار الشريف حسين، انظر كتاب د. ي. لورانس «المتحرج عن الإنكليزية» منشورات بونكان باريس ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).
- (١٧) لورانس، أفكار عظماء تشمل دون شك طرحه الشخصي إلى الضمور.
- (١٨) حقلت هذه الوثيقة وعلقت عليها في مقالتي ١٩٣٥م (١٩١٧م)، «دومينيكانيان في فلسطين» المنشور في مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٤٦، ص ٨٧-١٠٠.
- (١٩) مذكرة بشأن الحركة العربية على حدود الصحراء السورية، العفة - عمان، ١٣٣٥هـ (١٩١٧/٧/١٣)، آرشفيف الخارجية الفرنسية، حرب ١٩٣٢-١٩٣٦م (١٩١٤-١٩١٨م).
- (٢٠) المصدر السابق.
- (٢١) رسائل سرية من الجزيرة العربية - سورية، المادة الخام في كتاب د. ي. لورانس.
- (٢٢) الخارجية الفرنسية، آرشفيف الحرب.
- (٢٣) رسالة من رئيس مكتب الاستخبارات البحرية في بوسرعيد إلى

وزير البحرية

- (٢٤) ١٩٣٦م (يونيو/يوليو ١٩١٧م)، بديل نائب مدير دائرة «آسيا والصحبة» إحدى مراسلات بالعبارة التالية: «يجري القراءة بتلخيص كاتب النص المرفق هو على الغالب جوسين، المستشرق الكبير بالمعاصي المنشور والتفصيل يقع بتلخيص بشأن عالم اليوم، لأنه لا يفكر له عذرة عن الرقي التي أدرك الماضي المجيد، الخارجية، آرشفيف (الحرب).
- (٢٥) ١٩٣٦م (١٩١٨/٣/٢٢)، أوراق موظفي الآرشفيف الخاصة، المجلد ٧، آسيا الصغرى، سورية وفلسطين ١٩٣٥/١٩٣٧هـ (١٩١٧/١٩١٨م).
- (٢٦) آرشفيف الخارجية في نانت: القدس.
- (٢٧) ١٩٣٦م (١٩١٨/٣/٢٢)، القدس.
- (٢٨) ١٩٣٦م (١٩١٨/٩/١٨)، القدس عدد ٧٢، أخبار القدس ١٩٣٦م (١٩١٨/٩/١٨).
- (٢٩) ١٩٣٧م (١٩١٨/١١/١٤)، آرشفيف الخارجية في نانت، القدس ب رقم ٨٦ - القدس.
- (٣٠) البحرية، ٧٩.
- (٣١) البحرية ١٩١، آرشفيف الخارجية، الجزيرة العربية، الحجاز ١٩٣٦م (١٩١٨/١١/١٨)، ي ٢٠٢، مكتب الاستخبارات البحرية في الشرق، بوسرعيد ١٩٣٧م (١٩١٨/١٢/٢٧)، رقم ١٨٠ (معلومات وأردف من جوسين) دمشق والحجاز.
- (٣٢) مكتب التسجيل العام ١٩١٨/١٠/١٦، الدعاية الفرنسية في القدس

بعثة أثرية إلى بلاد العرب

«وجهة نظر عربية»

نقوش إغريقية، وكان اهتمامها بالناحية الأثرية، بعد أن اشبعها نهمها من الكتابات والنقوش، وهي تمثل الجانب اللغوي والمعجمي في الحضارة العربية. واضح أذاً انهما استطاعا بكل كفاءة أن يثبّتا قدرتهما على تسجيل المظاهر المعمارية للحجر، وما في الحجر ينقسم إلى مقابر ومنشآت دينية. أما بالنسبة للمقابر فقد استطاعا أن يميزا بين أنماطها المختلفة بناءً على العناصر المعمارية التي تميز بها، فهناك مقابر ذات شرفات، وهي على نوعين. وهناك مقابر تعلوها سلال أو أدرج، وهذه نقسمها إلى ثلاث مجموعات. وعلى العموم، فقد استطاعا تصنيف المقابر حسب أساليب نحتها وحسب ما تحمله وإجهاتها من حليات وزمير.

أما المنشآت الدينية فقد ركزا عليها تركيزاً واضحاً ولعل أبرزها ما يسمى بالديوان. إلى جانب المنشآت الدينية الأخرى في تضاعف جيل (إلب منتشرة هنا وهناك وفي جنوبه ممثلة لمعبودات ومحاريب ومقاصير. كل هذا العمل وهذا الزخم المعرفي كان حصيلة ثلاثة شهور في عام ١٣٢٥هـ (من مارس حتى مايو ١٩٠٧م).

وكانا قد حاولا الذهاب إلى العلا عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩)، وبلغاهما بالفعل، إلا أن ظروفهما إدارية لم تساعدهما على تحقيق أهدافهما، لكنهما عادا إليها في عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م). وفي هذه المرة استعدا استعداداً خاصاً لدراسة واحة العلا وأثار الخريبة. وفي هذه الدراسة استطاعا تحديد المواقع الأثرية على الأرض ورسم خرائط مفصلة متبعتين خط سكة حديد الحجاز، ودرسا المظاهر المعمارية على واجهة الجبال الشرقية والغربية وخاصة المقابر المعينية واللحانية وتمائيل الأسود واستنسخا كميات كبيرة من النقوش اللحانية تقارب ٤٠٠ نقشاً، إلى جانب النقوش المعينية المختلطة بها والمخرشات الثمودية وضيع نقوش نبطية ومثلها نقوش يونانية ولاتينية.

ولعلمها يعتبران أول رائدين رسماً خارطة للمدينة القديمة التي يسكنها أهل العلا. ورغم اهتمامهما بالدراسة السكانية، لها إلا أن الأهم من ذلك في رأيي هو تحديدهما للمنازل التي استحوذ أصحابها على بعض النقوش اللحانية ووضعوا زينة داخل بيوتهم، والتي بدراستهما لها أضافت معلومات قيمة إلى ما عرفناه بواسطتهما عن دولة لحان. كما رسما معبداً في وسط الخريبة، هو معبد لمدينة ديدن، يتوسطه وبالأحرى يقع فيه

قد لا نعرف الكثير عن جوسين وسافينيكا من حيث نشأتها وتعليمها وثقافتها، لكننا نعرفهما من حيث اهتماماتهما العلمية في مجال الآثار والكتابات في المجلات العلمية المهمة بثرات المشرق العربي، وخاصة ما له صلة بالتوراة باعتبارهما يمارسان العمل العلمي خدمة للدين ومحاولة لربط بين ما يكتشفانه وبين مسلمائهما. وقد شجعتهما الجمعية الفرنسية للتنقبات الأثرية على القيام برحلة يسيران فيها بمحاذاة خط السكة الحجازية من القدس إلى معان ومنها إلى تبوك ومنها إلى مدائن صالح. تلك هي المحطات الرئيسية في هذه الرحلة، ولكنها في حقيقة الأمر استعملتا حواسمها وإمكاناتها لتسجيل كل ما شاهداه وسمعاه وقراه عن الأماكن التي مرا بها.

إن النظر في العمل العلمي الذي سجاله ودرسا فيه كل شيء من هذه الرحلة يشعرك أنك أمام عالمن يعرفان قيمة الوقت يوماً بيوم وساعة بساعة بل ودقيقة بدقيقة. وقد سميا رحلتهم «بعثة أثرية إلى بلاد العرب» وتشمل رحلتهم من القدس إلى الحجاز مدائن صالح وقد أهديا عملهما هذا إلى «الدوق» دي لويات، العضو المشارك في أكاديمية النقوش والفنون الجميلة وعضو اللجنة المركزية للجمعية الفرنسية للتنقبات الأثرية.

وإذا أردنا أن نستعرض عملهما الجليل ومضينا معهما في بعثتهما، وجدنا أنفسنا نخرج من القدس في بداية الربيع متجهين إلى معان وما حولها إلى المستيقنة ثم مدائن صالح. لعل هذه هي المحطات الرئيسية التي يشيران إليها ولكنهما في حقيقة الأمر، وهما في طريقهما، سجلا كل شيء من يمين وشمال. أماكن وقرى وظواهر طبيعية وقبائل وبادية وأبار وأماكن استراحة ومواقع أثرية منذ عصور ما قبل التاريخ. وكانهم بذلك عيون لحمة عسكرية سوف تسلك هذا الطريق، أو أنهم يبهدان لرحلات علمية أخرى سوف تستفيد من هذا المسح الدقيق.

والى جانب ذلك نقلا ودرسا النقوش النبطية في الحجر والنقوش المعينية والمخرشات اللحانية. ذلك لأن الحجر ليست المكان الذي يمكن للمرء أن يجد فيه نقوشاً لحانية لأن الحجر كانت العاصمة الجنوبية لحضارة الأنباط. أما عاصمة لحان السياسية فهي العلا (دين القديمة)، كما وجدنا مخرشات ثمودية ونقوشاً عربية إسلامية وضيع

التي جرت بينهم وبين السلوقيين في بلاد الشام والبطالمة في مصر والعبرانيين في فلسطين. أما بقية الأرقام فلم يستطعوا تقديم تصور تاريخي مكتمل لها كالحبيانيين مثلاً. وإذا كان هذان الرائدان قد قدما هذه الخدمة الجليلة للحضارة العربية فلا ننسى وارثو كاسكل الذي قدم جهداً رائعاً في دراسته للنقوش اللحيانية. وقد بنى دراسته على ما قدمه جوسين وسافينيانك إلا أنه دخل في أعماق نفوسنا عندما استعمل الحرف العربي بدلاً من الحرف العبري في دراسته لهذه النقوش وأشار في مقدمة كتابه إلى هذه الناحية.

ولعل هذا الاتجاه لم يلفت نظر الباحثين الغربيين فاستبدلوا الحرف اللاتيني بالحرف العبري وهم بذلك يستعملون ما هو متيسر لهم، لكنهم اضطروا إلى وضع حركات مصاحبة لحروفهم لتكتمل أو لتطابق مخارج الحروف العربية، ولعل دعوة لهم أن

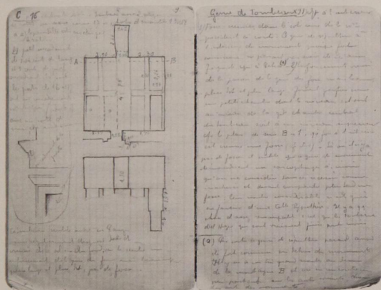
ما يعرف لدى العامة بحلج الشافعة، اعتقاداً منهم أنه في هذا الإناء الحجري الضخم كانت تحلب ناقة صالح عليه السلام.

شيء كثير هو ما قام به جوسين وسافينيانك، إذ قدما نموذجا متميزاً للعمل العلمي المنهجي الدقيق ولم يتركوا شاردة ولا واردة يمكن للإنسان أن يفكر فيها إلا وتناولها: خرائط، صور، رسومات، مناظر عامة مرسومة، أبعاد لأشياء، قد لا نهتم الآن بأخذ أبعادها، وغير ذلك كثير.

إلا أن ما يعتبره أمثالي درة هذا العمل هو شيان: الأول هو الدراسة الأثرية للعلا ومدائن صالح خاصة وكل ما مرا عليه بشكل عام، أما الثاني فهو دراستهما النصوص القديمة. وإذا كان هاليقي ومولر وجلازير وفسمان ثم ريكمان: الأوائل في دراسة نقوش جنوب الجزيرة العربية، فإن جوسين وسافينيانك يعتبران الرائدتين الحقيقيين لدراسة نقوش شمال الجزيرة العربية، ويعتبر منهجهما في دراستهما مثلاً يحتذى به حتى الوقت الحاضر.

لقد اهتمنا بمسح النقوش حسب مكان وجودها، سواء على واجهة الجبال أو على أبواب المقابر، وربطنا النقوش بعضها ببعض، فهذا إلى شمال هذا وذلك أعلى من الأول وثالث إلى شرق الخامس، وهكذا لا يمكن للمرء إلا أن يصل إلى حيث يقرأ النص حسب الوصف بكل دقة، وهما أيضاً يربطان بين هذه النقوش وبين من سبق أن صورها أو درسها قبلهما من أمثال هوبير وأويتج ودانوي ومن درسها من أمثال مولر، وبعد أن يقرأ النص بعد كتابته بحروف عبرية لأنها أقرب الحروف إلى ثقافتهم التوراتية، فإنهما كانا يقومان بدراسة النص مسطراً سطراً، وكلمة كلمة، مقارنين ما بمألفها في اللغات السامية وفي اللغة العربية، موجهين لها حسب المضمون الذي فهماه من النص، وهكذا يسيران في دراسة النصوص كلها، وقد يربطان مفردات النصوص بعضها ببعض ويستنتجان منها ما يعطي إشارة إلى الوضع السياسي أو الوضع الديني.

كما أنها استطاعا تحديد الفترة التاريخية للنصوص النبطية وذلك لوضوح تاريخ الانبساط الذي ساعدت على كشفه الكتابات الكلاسيكية والنصوص الأرامية والحروب

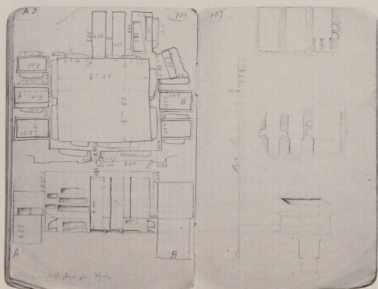
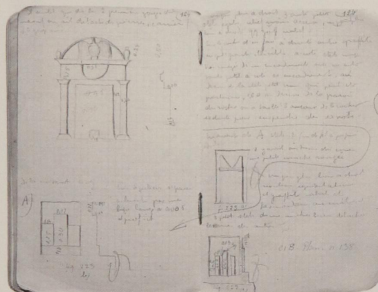


دكتور سافينيانك في بعثة عام ١٩٣٥هـ (١٩١٧م)
الصورة من جيب مدار

يتعرفوا على الحرف العربي وقدرته وطواعيته لمجاراته الحرف العربي القديم وخاصة أن النصوص القديمة تكتب من اليمين إلى الشمال أما الحرف اللاتيني فمن الشمال إلى اليمين، فكاننا نجبر النصوص القديمة على أن تكتب حيث يتجه الحرف اللاتيني قسراً لا طواعية.

العمل الذي قام به هذان العالمان الجليلان عمل خلدلهما وخلد ثقافتهما وخلد منهجيتهما وربط بين شعبين عريقين هما الشعب العربي في جزيرة العرب بكل جذوره المتجذرة بأعماق التاريخ وبين الشعب الفرنسي بكل عراقة وثقوقه منذ عصر النهضة حتى العصر الحاضر.

وإذا كانت الحضارة العربية، ممثلة في آثارها وتراثها، جذبت علماء فرنسا إلى الإهتمام بها والتفاعل معها ، محاولة فهمها واستيعابها وتقديرهم لمطلقاتها في جميع عصورها، فإن النهضة الأوروبية عامة والفرنسية خاصة كانت عامل جذب للحضارة العربية في عصرها الحديث وكان لها ريادة الفكر والثقافة والمنهج والفن والجمال.



دفتر سافيتيانك في سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م)
الصوره من فليبي مايال

أ. د. عبد الرحمن الطيب الانصاري

عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية



مدينة ينبع ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
الواجهة البحرية
[٢٢٨٢] ١٢×٩



مدينة الوجه، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)
 الميناء من أسفل البرج الجنوبي
 وتظهر السفينة الأولى
 وهي تحمل العلم الفرنسي
 [٢٢٧٠] ١٢×٩ سم



مدينة الوجه، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
 المدينة والشاطئ الصخري
 لقطة من الجنوب الشرقي
 ١٢×٩ سم [٣٢٦٨]



مدينة الوجه، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)
البرج، جنوبي الميناء
[٢٧٦٩] ١٢٠٩ سم



مدينة الوجه، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
العمالون في الميناء،
[٢٢٧١] ١٢×٩ سم



مدينة الوجه، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
 شارع على الميناء، إنزال عربية حربية
 (ومقطورة مع صفايح كتب عليها «بفرين»)
 [٢٢٧٥] ١٣٠٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)
 سور المدينة البحري، قنصلية فرنسا
 والمركز البرقي للبعثة العسكرية الفرنسية
 [٢٢٩٨] ١٢×٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م).
 السور الشرقي قرب باب مكة المكرمة
 [٢٢٩٩] ١٢×٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م).
باب المدينة المنورة
[٢٣٠٠] ١٢٠٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م).
 صورة للمدينة من شرفة
 القنصلية الفرنسية
 [٣٣١١] ١٢×٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
 الشارع المواجه للقنصلية الفرنسية
 [٢٣١٣] ١٢×٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م).
مقر الحكومة ويواقتها
العثمانية التصميم
[٢٣١٧] ١٢×٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م).
دار فخمة قرب مقر الحاكم
[٢٣١٥] ١٢×٩ سم





مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
القنصلية الفرنسية. على المدخل
غبارة: «البعثة الخيرية الفرنسية»
[٢٢.٨] ١٢٠٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
القنصلية البريطانية
١٢×٩ سم [٣٣١٦]



مدينة جدة، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م).
 منزل، وإلى اليسار، مسجد الحي
 [٢٣١٨] ١٢×٩ سم



مدينة جدة، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)
السفح
[٢٣١٩] ١٢×٩ سم



مدينة بنبع ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م).
خارج باب المدينة المنورة
١٣٨٩ سم [٢٣٩٢]



مدينة ينفج ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م).
باب المدينة المنورة، من الداخل
[٢٢٩٣] ١٣٥٩ سم







مدينة بنبع ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)
 شارع قرب ساحة الشريف حسين
 [٢٢٨٨] ١٢×٩ سم



مدینة بنوع ۱۳۳۶ هـ (۱۹۱۷ م)
مقزل
سم ۱۲۸۹ [۲۲۸۷]



مدينة بنبع ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)
القلعة العثمانية
[٢٢٩١] ١٢×٩ سم



مدينة الوجه، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م).

الباب الشرقي.

منظر من خارج المدينة

[٢٢٧٢] ١٢×٩ سم



مدينة الوجه، ١٣٣٦هـ (١٩١٧م).
ساحة قرب الباب الشرقي
[٢٢٧٢] ١٢×٩ سم





مدينة جدة، ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م)
 أكواخ منطقة الأفارقة
 [٢٣.٤] ١٢×٩ سم





مدينة تبوك. ١٣٢٥هـ (مايو ١٩٠٧م)

مدخل القصر العربي

١٢×٩ سم [٢١١٢]



مدينة تنوك، ١٣٣٥هـ (مايو ١٩١٧م)
خلفية القصر وحدوض نبع الماء
[٣١١٦] ١٢×٩ سم



مدينة تنوك، ١٢٢٥هـ (مايو ١٩٠٧م)
 الباحة الداخلية في القصر
 [٢١١٤] ١٢×٩ سم





قلعة المعظم، ١٣٣٥ هـ (٣ أبريل ١٩٠٧ م).
 القصر وفيه بركة الماء.
 [٢١٢٤] ١٢×٩ سم



قلعة الأخضر، ١٣٢٥هـ (١ أبريل ١٩٠٧م).
 منظر شمالي للقصر العربي مع خيام
 الجيش التركي
 [٣١٢٠] ١٢×٩ سم



مدينة العلا (دينن)، ١٣٢٧ هـ (مارس ١٩٠٩ م).
 طرف واحة المنشية
 [٢٦٨] ٢٤ × ١٨ سم



مدينة العلا (ميدن)، ١٣٢٧هـ (مارس ١٩٠٩م).
القلعة وسور الواحة. من جهة الجنوب الغربي
[٢٢٢٥] ١٥×١١ سم



مدينة العلا (مدین)، ١٣٣٧ھ (مارس ١٩١٩م).
 المحطة الجديدة، من جهة الغرب
 [٢٣٢٤] ١٥٠١١ سم



مدينة العلا (دينن)، ١٣٢٧ هـ (مارس ١٩٠٩ م).
الواحة الكبيرة، من جهة الجنوب الشرقي
[٢٦٥] ٢٤×١٨ سم



مدينة العلا (ديين)، ١٣٣٧هـ (مارس ١٩١٩م).
 قرية الواحة مع القلعة على صخرة أم النصر،
 من جهة الغرب
 [١٣٦٢ ج. ٦٨٦ سم



مدينة العلا (مدينة)، ١٣٢٧هـ (مارس ١٩٠٩م).
قلعة أم النضر في وسط القرية، من جهة الغرب
[١٣٢٠ ج ٦٠ سم]



مدائن صالح (الحجر) ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م)
 لحوم، مقهى، مطعم
 [١١٦٢ ج] ٦٠٦ سم



مدائن صالح (الحجر) ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م)
القصر العربي، من جهة الشرق
[١١٣٢ ج ٦] سم



مدائن صالح (الحجر)، ١٢٢٥ هـ (١٩٠٧ م).
 القبران «ب» من العام ٢٧ ق. م. و «آ» من العام ١ ق. م.
 [٢٥٢] ١٨ × ٢٤ سم



مدائن صالح (الحجر)، ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م).
 القبر ١٥٠، العام ٣١ ق م.
 ٢٤٩ [٢٤٩] ٢٤ × ١٨ سم



مدائن صالح (الحجر)، ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م).

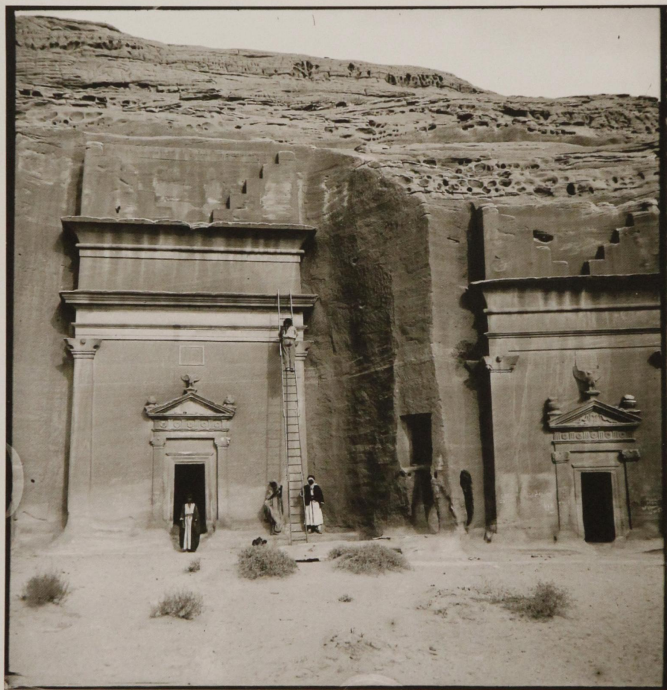
القبران «ب» (إلى اليسار) من العام ٢٧ ق. م. و «آ» من العام ١

ق. م. (في الوسط)، سافيتنيك

[٢٣٧ ج] ٤,٨×٤,٨ سم



مدائن صالح (الحجر)، ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م).
 القبران «أب» من العام ١ ق. م. و «ب» من العام ٣٥ م.
 سافيتياك في أعلى السلم يقبس الكورنيش
 [١١٥٩ ج مكرز] ٦٠٦ سم



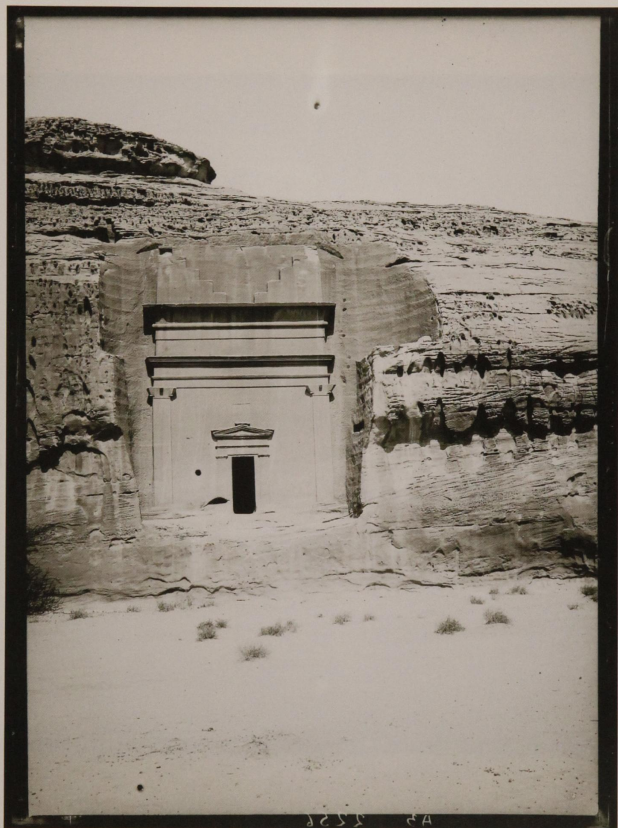
مدائن صالح (الحجر)، ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م).
 القبر «ب» من يناير ٣٦ م.
 [٢٢٦ ج] ٤.٤×٤.٨ سم



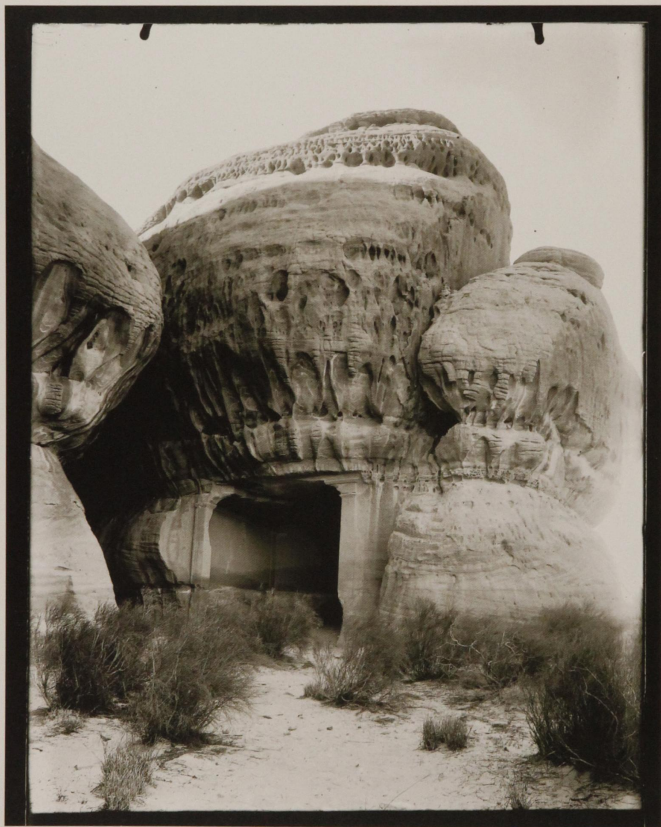
مدائن صالح (الحجر)، ١٣٣٥هـ (١٩١٧م)
 القبر «١٨» من العام ٤٢ م.
 [١١٤٨ ج ٦ ص ٦٨٦ سم]



مدائن صالح (الحجر)، ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م).
القرن ١٣ هـ من العام ٥ م.
[٢٢٥٦] ١٥٠١١ سم



١٥٠١١ سم



مدينة العلاء (مدین)، ١٣٢٧ هـ (مارس ١٩٠٩ م).
 القبر المعيني «١١»
 [٢٣.٧٧] ١٥×١١ سم



مدائن صالح (الحجر)، ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م).
مسلة فوقها نسر - جنوب جبل إيلب
[١٣٤٧] ١٨×١٣ سم



مدينة العلا (ديفن)، ١٣٢٧ هـ (مارس ١٩٠٩ م).
 القير المعيني «١٢»، سافيتياك في أعلى السلم يركب الحامل
 الثلاثي لآلة التصوير ٢٤×١٨ المفتوحة أسفل السلم.
 [١٢١٣ ج ٦×٦ سم]



مدينة العلا (بين). ١٣٢٧ هـ (مارس ١٩٠٩ م)
 في الخربة، التمثال «أ» في المعبد النحلياني.
 [٢٠٨] ٢٤ × ١٨ سم



٥

مكتبة الملك عبد العزيز العامة ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة التراث - الرياض

صور فوتوغرافية من المملكة العربية السعودية شمال وغرب المملكة ١٣٢٥-

١٣٣٦هـ/١٩٠٧-١٩١٧م - الرياض

٩٦ص، ٢٥X٢٥سم

ردمك ٧-٥٨-٦٢٤-٩٩٦٠

١- السعودية - صور أ-العنوان

ديوي ٩١٥.٣١ ٢٠/٤٠٤٥

رقم الإيداع ٢٠/٤٠٤٥

ردمك ٧-٥٨-٦٢٤-٩٩٦٠

